اسم الدرس : تفسير سورة الجن

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

بسم الله، والصلاةُ والسَّلامُ على رسولِ الله صلى الله عليه وسلم

أهلًا بكم، بفضل الله-سبحانه وتعالى- نستعيد ونعود مرةً أخرى إلى مجالس القرآن التي أسألُ الله سبحانَهُ وتعالى أن يديمها علينا، وأن يجعلني وإياكم من أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته.

حقيقةً الإنسان يتردد كثيرًا، ويظل يتفَكَّر في كل مرَّة، بعد أن مَنَّ اللهُ -سبحانه وتعالى- علينا بالانتهاء من سورة كسورة الرعد، أو سلسلة كأصول الانحراف، ما هي السورَة التي قد يُفتَح بها علينا؟!

وحقيقةً كنت أنوي الكلام عن سورة الكهف، لكِن بعض الأفاضِل أشار عليَّ بأن هناك سُوَر باقيَة من جُزء تبارَك، فأردتُ أن أستعين بالله، ونتناول السور التي تبقتْ من جُزء تبارَك بإذن الله.

وكما ذَكَرْت في محاضرة -إن شاء الله ستنزِل قريبًا- عن مسألة: المنهجيَة المقترَحة لمدارسة سورة قرآنيَّة، أن الإنسان أحياناً لا يختار السورة، لكن قد يكون هناك نوع من الفَتْح من الله -سبحانه وتعالى-، ولأن القضيَّة ليسَت مُجرَّد جَمْع لأقوال المفسِّرين، الأمر يحتاج إلى فَتْح من اللهِ -سبحانَهُ وتعالى-، ومُعايَشَة مع هذهِ السُّورَة.

ثبات الداعية على منهجه وعلى توصيل الوحي

فاليوم بفضلِ اللهِ -سبحانَهُ وتعالى- سيكونُ حديثُنا مع سورة من جزء تبارَك، وهي سورة الجِنّ، كُنَّا تكلَّمنا منذُ زمنٍ بعيد عن سورَةِ نوح، وتكلَّمنا عن الجُهد المبذول في الدَّعوَة في هذهِ السُّورَة، بل حقيقةً جزء تبارَك فيه نوع ترابُط ما، وكذلك جزء قد سمع، وجزء عم أيضًا له هدف عام، وهذا الأمر اجتهاديٌّ، فالإنسان يُحاوِل البَحثْ في ترابُط مجموعَة من السُّوَر.

لذلك دعونا هذه المرة نتكلَّم في ترابُط موقع سورَة الجِنّ، ونحن عادة حين نتناول السُّوَر نتكلَّم عن زمانِ النُّزول، ونتكلَّم عن الموقِع في المصحف، وأحيانًا نتكلَّم عن خواصّ السُّورَة، وذكرت أيضًا في درس المنهجيَّة المقترَحة كيفَ نصِل إلى خواصّ السُّورَة القُرآنيَّة.

فعندما نتكلّم على زمان سورَة الجِنّ، **السُّورَة مكيَّة باتفاق**، فالأحداث التي دارت فيها كانت في مكَّة..

على خِلاف: متى نزَلَت هذهِ السُّورَة؟

هل في مُبتَدأ البعثَة؟!

لأننا -كما سنرى- نجد في أول آية أن النَّبي - صلى الله عليهِ وسلَّم- يُخبِر أنَّهُ قد أُوحِيَ إليهِ، وأنَّ الجِنَّ استمعوا إليهِ، وسنَذْكُر الأثَر المرْويّ عن ابنِ عبَّاس في البُخاريِّ عن سبب مجيء الجِنّ.

أم أنَّ السُّورَة مكيَّة في نهايَة البَعثَة بعد عَوْدة النبيِّ -صلى اللهُ عليهِ وسلَّم- من الطَّائِف؟!

أيًّا كان،هناك آراء سأذكُرُها بإذنِ اللهِ -سُبحانَهُ وتعالى-، فالخُلاصَة أنَّ السُّورَة مكيَّة.

عندما ننظُر لزمان السُّورَة مع موقِع السُّورَة في المصحَف، بعد سورَةِ نوح، وكنا قد تكلّمنا في سورَةِ نوح -كما ذكرت- عن الجُهد الدَّعوي المبذول، وتكلَّمنا عن كلام الدَّاعيَة، وجُهد الدَّاعيَة، وأولويات الدَّاعيَة، بالتفصيل لمن أرادَ أن يستَمِع إلى سورَةِ نوح.

بعد هذا الجُهد المضني الذي قام بهِ النَّبيُّ -صلى اللهُ عليهِ وسلَّم- في الدَّعوَةِ إلى الله، فقد كانَ يدعو إلى اللهِ ليلًا ونهارًا، سِرًّا وجِهارًا، كما فَعَلَ نوح -عليهِ السَّلام-، فكانَ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- يجدُ إعراضًا شديدًا من مُشركي قريش في مكَّة، ثُمَّ ذهَبَ ليدعوَ أهلَ الطَّائف، فقابلوه -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- مُقابلَةً سَيِّئة، وأغروا بهِ سُفهاءهُم، وألقَوْا عليهِ الحِجارة حتى سالَ الدَّمُ مِنهُ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم-، فعادَ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم-، وقيل أن في هذا الوقت صَرَفَ اللهُ -سُبحانَه وتعالى- إليهِ الجِنّ ليستمعوا: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ} [الأحقاف:٢٩] كما في سورَةِ الأحقاف.

لأنَّ بَعضَ المفسِّرين قال أن الحادِثَة التي ذُكِرَت في آخِر آل حَم مُجتَمِعَة، في آخِر صفحَة في الأحقاف، وهذا خِتام آل حَم، هي نَفس الحادِثَة التي ذُكِرَت في أوَّل سورَةِ الجِنّ.

وبعض المفسِّرين قال أن هذهِ الحادِثَة غيرَ تلك، وسأذكُر هذا -بإذنِ الله- في أولِ آية.

الخُلاصَة، لو استَحْضَرنا **مشهَد إعراض مُشركي قُريْش، وإعراض الطَّائف، والإعراض الذي واجهَهُ نوح –عليهِ السَّلام– في سورَةِ نوح**، وتبدأ السُّورَة –سورَة الجِنّ– بعد سورَة نوح..

يقولُ اللهُ سُبحانَهُ وتعالى:

{قُلْ} يا مُحمَّد

{أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ} استمعوا إلى ماذا؟!

استمَعوا إلى القُرآن، كانَ النَّبيُّ –صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم– يقرأُ القُرآن –كما في روايَةِ البُخاريِّ– في صلاةِ الفَجْر في روايةِ ابنِ عبَّاس[1].

النَّبي– صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم– كان يستَمِرّ في قِراءةِ الوَحْي، وهذا هو أول شيء نريد أن نخرُج بهِ من سورَةِ الجِنّ:

أنْ تَثْبُتَ على مبادِئك! أن تَستَمِرّ على مَنهَجِكْ! أن تستعلِنَ بالوَحي!

فبالرَّغمِ من إعراضِ النَّاسِ عنْه، وبالرَّغمِ من الإعراض الذي ذُكِرَ في سورَةِ نوح، وبالرَّغمِ من الإعراض الذي كانَ في مكَّة، وبالرَّغمِ من الإعراض الذي كانَ في الطَّائف، إلا أنَّ النّبيَّ –صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم– لم يبحَث عَنْ منهَجٍ بديل يُرضي هذهِ الأطراف، ولم يبحَث عنْ اتفاقيَّة مُشتَرَكَة مع قُرَيْش أو مع الطَّائف، استمرَّ النَّبيُّ –صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم– على منهَجِهِ، استمرَّ على قِراءةِ الوَحْي، وكانَ في الوَحْي النَّجاة، بل كانَ في الوحْي –في هذهِ السُّورَة– **إشارَة إلى أنَّكُم لو أعرَضتُم عن القُرآن فسيَبعَثُ اللهُ سُبحانَهُ وتعالى خلْقًا غيرَكُم، وليسَ مُجرَّدْ جيلًا غيرَكُم أو أُناسًا غيرَكُم، قَدْ يبعَثُ اللهُ –سُبحانَهُ**

---

١ [عن عبدالله بن عباس:] انْطَلَقَ النبيُّ ﷺ في طائِفَةٍ مِن أَصْحابِهِ عامِدِينَ إلى سُوقِ عُكاظٍ، وقدْ حِيلَ بيْنَ الشَّياطِينِ وبيْنَ خَبَرِ السَّماءِ، وأُرْسِلَتْ عليهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّياطِينُ إلى قَوْمِهِمْ، فَقالوا: ما لَكُمْ؟ فَقالوا: حِيلَ بيْنَنا وبيْنَ خَبَرِ السَّماءِ، وأُرْسِلَتْ عَلَيْنا الشُّهُبُ، قالوا: ما حالَ بيْنَكُمْ وبيْنَ خَبَرِ السَّماءِ إلَّا شيءٌ حَدَثَ، فاضْرِبُوا مَشارِقَ الأرْضِ ومَغارِبَها، فانْظُرُوا ما هذا الذي حالَ بيْنَكُمْ وبيْنَ خَبَرِ السَّماءِ، فانْصَرَفَ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهامَةَ إلى النبيِّ ﷺ وهو بنَخْلَةَ عامِدِينَ إلى سُوقِ عُكاظٍ، وهو يُصَلِّي بأَصْحابِهِ صَلاةَ الفَجْرِ، فَلَمّا سَمِعُوا القُرْآنَ اسْتَمَعُوا له، فَقالوا: هذا واللَّهِ الذي حالَ بيْنَكُمْ وبيْنَ خَبَرِ السَّماءِ، فَهُنالِكَ حِينَ رَجَعُوا إلى قَوْمِهِمْ، وقالوا: يا قَوْمَنا: {إنّا سَمِعْنا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إلى الرُّشْدِ، فَآمَنّا به ولَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أحَدًا} [الجن: ١] وإنَّما أُوحِيَ إلَيْهِ قَوْلُ الجِنِّ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٧٧٣ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٧٧٣)، ومسلم (٤٤٩)

وتعالى- خَلْقًا غيرَكُم ليستَمِعوا إلى الوَحْي ويستفيدوا، ويتسمَّعوا كما في رِوايَةِ البُخاريِّ: (فَلَمَّا سَمِعوا القُرآنَ تَسَمَّعوا لهُ)، وأنصتوا إلى الوَحْي كَما في آخرِ الأحقاف، وتأثَّروا بكتابِ اللهِ -سُبحانهُ وتعالى-.

إذًا أوَّل وَقْفَة معنا في هذهِ السُّورَة: لا بُدَّ أن يثبُتَ الدَّاعيَةُ على منهَجِهِ، وعلى توصيلِ الوَحْي فهذهِ هي رسالَته، ولا يَمَلّ أبدًا حتى لو تَسَبَّب الوَحْيُ في إعراضِ بعضِ النَّاسِ عنهُ في زَمنٍ من الأزمِنَة، فإنَّ ثَبات الدَّاعيَة على الوَحْي يكونُ بإذنِ اللهِ -سُبحانَهُ وتعالى- السَّبب في تَمكينِ الدَّاعيَةِ مرَّةً أُخرى، أو في تمكين من يأتي من بعدِهِ!!

كما قالَ اللهُ -سُبحانَهُ وتعالى-للنّبي أثناءَ هِجرَتِهِ إلى المدينَة: {إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ} [القصص:٨٥]، **فالذي فَرَضَ عليكَ القُرآن هو الذي تسبَّبَ في إخراجِ قُرَيْشٍ لَك!**

كذلِكَ التزامُكَ بالقُرآن وتَمَسُّكَكَ بالوَحْي هو الذي سوفَ يُعيدُكَ مرَّةً أُخرى، ويُمَكِّنُكَ مرَّةً أُخرى، إذًا الدَّاعيَة لا بُدَّ أن يستمسِكَ بالوَحْي، وأن يستَمِرَّ في تلاوةِ الوَحيْ مهما أعرضَ النَّاسُ عنه.

الناس في الأصل يحتاجون إلى الوحي

ثانيًا: أن النَّاس في الأصل يحتاجون إلى الوحي، وهذا ذكرتُه بالتَّفصيل في آخِر دَرْس من سلسلَة أصول الانحراف "معركة النص" النَّاسُ يحتاجونَ إلى الوَحْي، النَّاس لا يُمكِن لهُم أن يعيشوا بغيرِ الوَحْي!
فإذًا مسألة احتياج البَشريَّة إلى الوَحْي تَكلَّمتُ عنها بالتَّفصيل في درس معرَكَة النص، فلا حاجَةَ إلى إعادَتِه مرَّةً أُخرى.

إذًا -أحبَّتي في الله- الدَّاعيَة لا بُدَّ أن يَستَمسِكَ بالوَحْي، حتى لو قابَلَ ذلك إعراضُ النّاس عن دينِ الله -سُبحانَهُ وتعالى-

استماع الجن

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾

ثُمَّ يقولُ اللهُ -سُبحانَهُ وتعالى- في هذهِ السُّورَة، سورَةُ الجِنّ: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ}، النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم يُخبِرُ: {قُلْ}، هذا أمرٌ جَلَلٌ يُخبِر بهِ النَّاس!!، {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ}، هذهِ القِصَّة- قِصَّة استماع الجِنّ للنَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- فيها خِلاف طويل، حقيقةً لا أوَدُّ الدُّخول في التفاصيل... أكثر من فَصَّلَ في هذا الخِلاف الإمام القُرطُبي في مُقدِّمة السُّورَة.

- هم اختَلَفوا هل كانَ النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- يعلَم بوجودِ الجِنّ أمْ لا؟!

هذا أول اختلاف، بمعنى: هل النَّبي -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- كانَ يقِفُ في الصَّلاة، ويُصلِّي بأصحابِهِ صلاةَ الفَجْر، وهُو لا يعلَم أنَّ الجِنّ يستمعونَ إليه؟! وهَل هذا الحَدَث هو الذي تَكَلَّمَت عنهُ سورَة الجِنّ؟! أمْ أنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- كانَ يعلَمْ بمجيءِ الجِنّ، واستعدَّ لهُ، ثُمَّ ذهَبَ إلى جِنٍّ مُعيَّنين جاؤوا إليه -صلّى اللهُ عليهِ وسلَّم- يطلبونَ الاسترشادَ بالوَحْي فقرأ النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- الآيات القُرآنيَّة؟!

إذًا أوّل اختلاف: هل كانَ النَّبيُّ صلى اللهُ عليهِ وسلم يعلَم أم لا؟!

- الاختلاف الثَّاني: لو قالوا أن النَّبي -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- كانَ يعلم، أي على رِوايَة أن النَّبي -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- ذَهَبَ وقرأ عليهِم، هل ذَهَبَ النَّبيُّ -صلَّى الله عليهِ وسلَّم- بمُفرَدِهِ، أم كانَ معه -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- أحد؟!

رِوايَة ابن عبَّاس -والتي عليها غالِب المفسِّرين- أنَّ النبي لم يكُن يعلَم بمجيءِ الجِنّ.

إذًا ما هي قِصّة السُّورَة هنا – سورَة الجِنّ–؟!

هناك حديث في البُخاري، وهوَ المذكور في سبب النُّزول، وغالِب كُتُب سَبَبْ النُّزول لم تَذكُر إلا هذا الأثَر الموجود في البُخاري وفي غيرِه، بل حتى كتاب المحرَّر من أسباب النُّزول لم يذكُر إلا هذا السَّبَبْ.

ما هو السَّبب إذًا؟! ماذا حدث؟! "سنتكّلم الآن حسب رِواية أن النَّبي –صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم– لم يكُن يعلَم بمجيء الجِنّ"، الذي حدث أن الجِنُّ كانوا يستَمِعونَ، بل كانوا يستَرِقون السَّمْعَ، وكانوا يجلِسونَ في مقاعِد من السَّماء يستَرِقون السَّمْع، فشعروا بتغيُّر ما، لكن ما نوع هذا التغير؟! –سنذكُر أيضًا أن هذا الأمر فيه خِلاف، وهذه هي النُّقطَة الثَّالثَة التي فيها الخِلاف– الذي حدث أنهم شَعَروا بتغيُّر عند استِراق السَّمع، شَعَروا بالشُّهُب التي تحرِقُهُم، لكن هل الشُّهُب كانت موجودة ثُمَّ زِيدَ فيها؟! أم أنَّ الشُّهُب لم تَكُن موجودة أصلًا؟! هذا أيضًا من الخِلاف،إذًا لدينا ثلاثة أنواع من الخِلاف:

١– في مُقدِّمة السُّورَة: هل عَلِمَ النَّبيُّ –صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم– بمجيء الجن أم لا؟!
٢– هل اصطَحَبَ النَّبيُّ –صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم– معهُ أحَد في رِواية من قالَ أنَّهُ عَلِمَ بِهِم؟!
٣– في استِراق السَّمع من الشَّياطين، هل كان هناك شُهُب تُلقى على الجِنّ قبل بَعثَة النَّبيّ – صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم– التَّغيير الذي شَعُر به الجِنّ أن زِيدَ في هذهِ الشُّهُبْ، بتعبير القُرآن أنها: {مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا} فلم يحدث فيها حَرَس، لا، بل مُلِئَتْ يعني أنها كانت موجودة، لكن التَّغيُّر هو الامتلاء، والزيادَة في الشُّهُب؟

فالخُلاصَة: الجِنّ شَعروا بتغيُّرٍ ما –أيًّا كان التَّغيُّر– هو عدَم وجود الشُّهُب ثُمَّ مجيء الشُّهُب، أو أن الشُّهُب كانت قليلة وكانوا يستطيعون أن يَستَرِقوا السَّمع حتى لو حُرِقَ بعض الجِنّ، ثُمَّ بعدَ ذلِك مُنِعوا مُطلقًا من استراق السَّمع بعدَ الحَدَث الجَلَلْ، فانتشروا وذهبوا إلى إبليس وقالوا لهُ هذا الأمر العَجيب، فإبليس تعجَّب، وفي رِواية البُخاريّ أنَّهُ أرسَلَ مجموعَة من الجِنّ في كُلّ مكان، في رِواية خارِج الصَّحيح: أنَّهُ طَلَبَ منهُم قَبْضَة من كل مكان من الأرض؛ حتى يَشُمَّ الأرض، ثُمَّ شَعُرَ بتغَيُّر في رائحَة مكَّة، فأرسلهُم باتِّجاه مكَّة، رِوايَة البُخاريّ: أنَّ إبليس –عليهِ لعنَةُ الله– أرسَلَ مجموعات من الجِنّ في أماكِن مُختَلِفَة، لأنهُم قالوا الحَدَث المهيب الجَلَلْ الذي حدثَ في السَّماء، وأنَّهُم مُنِعوا من استِراق السَّمْع هذا لأمرٍ جَلَلْ، وقالَ بعضهُم هذا لنَبِيٍّ بُعِثْ، هُم فهموا أنَّ السَّماء الآن يحدُثُ فيها أمرٌ جَلَلْ، وهوَ نزولُ الوَحيِ على بشَرٍ من عِبادِ اللهِ –سُبحانَهُ وتعالى–، حتَّى الجِنّ يعلَمونَ أنَّ هذا أمر مَهيب:أي نزول الوحي!

وكتاب الظِّلال أبدَع حقيقةً في كلامهِ في مَطْلَع سورَة العَلَق عن هذا الحَدَثْ الجَلَلْ؛ أن الله -سبحانه وتعالى-يصطفي -بَشَرًامِنَ البَشَر ويُوحِيَ إليهِ بِكلامٍ من كلامهِ -سُبْحانهُ وتعالى-!

فهذا الحدَثْ الجَلَلْ جَعلَ الجِنّ يتحيَّرون، فماذا فعل إبليس؟! وزَّعَ الجِنّ مجموعات مثل المخبرين أو الجواسيس، وكانَ يُطلِق الجِنّ في أماكِن مُختَلِفَة، كان حَظّ مجموعة من الجِنّ الذين ذهبوا عِندَ عُكَّاظ أن النّبيُّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- يقِف بنخلَة يُصلِّي بأصحابِهِ صلاةَ الفَجْر.

وهذه رِواية ابن عبَّاس؛ أن النَّبي -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- لم يكُن يعلَم بمجيءِ الجِنّ، وأن السَّبَبْ أنَّهُم فوجِئوا بِتَغيُّر في السَّماء، وحقيقةً هذه الرِّوايَة توحي أنَّ هذا الأمر كان في أوَّل البعثة، منَ العَجيب أن النَّاس يذكرون هذهِ الرِّوايَة بعد مجيءِ النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- من الطَّائِف! هل من المعقول أن الجِنّ ظَلُّوا كُل هذهِ السَّنوات بعد البَعثَة يبحثونَ عن سَبَب منع الاستراق؟! وعن التَّغيُّر الذي حدَث في السَّماء لمنع استراق السَّمع؟! واللهُ أعلَم.

فالرِّوايات كثيرَة في هذا الأمر، دعونا نكمل رِوايَة ابن عبَّاس؛ لأن هناك خِلاف الآن:
هل الجِنّ الذين سمعوا، هم من قال عنهم الله {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ} هذا النَّفَر، هَل كانوا الجواسيس أم كانوا الوَفْد؟! أي الخِلاف كما يذكُرُه ابن عطِيَّة ، النَّفَر الذين استمَعوا إلى القُرآن من النَّبي -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- كانوا جواسيس بعث بهم إبليس أم أنهم كانوا وفْدًا جاءَ ليستَمِع للقُرآن، وخرجَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم كوَفْد من الوُفود يُعلِّمُهُم الوَحْي، ويقرأ عليهِم القُرآن؟!

رِوايَة ابن عبَّاس تقول أنهم كانوا جَواسيس، وهذه الرواية التي عليها غالِبُ المفسِّرين، وعليها جُمهور المفسِّرين أن هذا هو سبَبْ نزول هذهِ السُّورَة.

حينما يستعمل الإنسان لنصرة الدين

إذًا نكمل ثانيةً رِواية ابن عبَّاس، فإبليس أرسَلَ مجموعَة من الجواسيس، قيل أنه قسمهم مجموعات وقبائل، اختلف بعض المفسِّرين في أسماء الجِنّ أو قبائِل الجِنّ الذين جاؤوا إلى مكان النَّبي -صلَّى اللهُ

عليهِ وسلَّم-، قيل كانوا من أهلِ نصيبين أو غيرِهِم، وقالوا كانوا من الرِّجال ، وهذه تفاصيل ليسَت مُهِمَّة داخلِ التَّفسير.

ولكن انظر إلى حال النبي في ذلك الوقت، **حينما يُستعمَل الإنسان لنُصرَةِ الدِّين حتَّى وهو لا يشعر**، فالنَّبي -صلى اللهُ عليهِ وسلَّم- يقِف يُصلِّي بأصحابِه، وهوَ لا يعلَم بمجيءِ الجِنّ! تخيَّل الإنسان يعمَل في الدَّعوَةِ إلى الله، ويجتَهِد في الدَّعوَة، والنَّاسُ يُعرِضونَ عنه ويُلاقي من الأذى والعَنَتْ والرَّهَق من النَّاس، ثُمَّ يقِفُ في الصَّلاة، في صلاةِ الفَجْرِ، ويقرأ قُرآنَ الفَجْر: {إِن قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا}[الإسراء:٧٨]، على مسامِعِ الصَّحابَة، ويتسبَّب هذا القُرآن في تغييرِ طائفَةٍ مِنَ الخَلْقْ! هل أنت مُتخيِّل الفَتْح الذي من الممكن أن يأتي من ثَبات الإنسان على مبادئِه، وثباتِ الإنسانِ على صلاتِه؟! لذلك فالإنسان لا يتعجَّل النَّصْر، ولا يتعجَّل أثرَ دَعوَتِه!

فالخُلاصَة: جاءَ مجموعَة من الجِنّ، ووجدوا النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- يقرأ القُرآن على مجموعَة من أصحابِه، كانَ مشهدًا مهيبًا، كانَ مشهدًا غريبًا بالنِّسبَةِ إليهِم، فلمَّا سَمِعوا القُرآن تسمَّعوا له فاستغربوا، لاحظ معي هنا، هؤلاء مجموعَة من الجواسيس!! وكيف أنه من الممكِن أن ينقلب مُخبِر جاسوس، ويكون داعيَة إلى الله!! لأنهم ذهَبوا إلى قومِهِم مُنذِرين، **فالإنسان لا يفقِد الأمل في أيِّ بشَر، قد يُسلِم وقد يتحوَّل إلى داعيَة حتى لو كانَ جاسوسًا، ولكن بالطبع لا يثق فيه الثقة العمياء.**

القرار الفوري بالإيمان

هؤلاء الذي كانوا مُخبِرين لإبليس، وكانوا جواسيس له، حينما سمعوا القُرآن انقلَبَت حياتُهُم انقلابا مهيبا، فقالوا: {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ}! **أخذوا قرارا فوريا، قرار هؤلاء الجِنّ الجواسيس -في هذهِ اللحظَة- أشبَه بقرار السَّحَرَة عندما أخذوا قرار الإيمان**، حينما رأوا عصا موسى تلقَفُ ما كانوا يأفِكون، أخذوا قرارًا لم يُفكِّروا في تَبِعاتِه، أخذوا القَرار بناءً على ما رأوْه من الآيات المعجِزَة، هكذا فعلَ هؤلاءِ الجِنّ، الجِنّ لم يُفَكِّروا، ولم يقولوا: ماذا سيفعل إبليس بنا؟! ماذا سنقول له إذا رجعنا؟! هل سيُعذِّبُنا؟! ولكن أخذوا قرارًا فوريًا بالإيمان، **هكَذا حينما يرى الإنسانُ آيةً واضِحَةً بيِّنَةً لا يتمالَكُ نفسهُ أمامَ هذهِ البَيِّنَة**، كما قالَ ربُّنا سُبحانَهُ وتعالى عن عباد الله الصالحين {خَرُّوا سُجَّدًا}[مريم:٥٨][السجدة:١٥].وخَرّ: كأنَّ الإنسان يسقُط... هكذا هنا الجِنّ لم يتمالَكوا أنفُسَهُم وقالوا: {سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا}، لم يتمالَكوا أنفُسَهُم حينما استمعوا إلى الوَحْي!

هَل هذهِ المشاعِر نشعُرُ بها تِجاهَ القُرآن؟! حينما نستَمِع إلى القُرآن في صلاةِ التَّراويح من صوتٍ نَدِيٍّ هل نقول: {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا}؟! هذا ما حدَثَ مع هؤلاءِ الجِنّ، فعادوا إلى قومِهِم، هل نعود ونقرأ الآيات وتفسيرها.

القَوْل الثاني: أن النَّبي -صلى الله عليهِ وسلَّم- كانَ يعلمُ.

وهذه الرِّوايَة عن ابن مسعود. وهي أن النبيّ -صلى اللهُ عليهِ وسلم- ذهبَ ليقرأ القُرآن على وَفْدٍ من الجِنّ جاءَ ليتعلَّمَ من النَّبيّ -صلى اللهُ عليهِ وسلَّم- .والرِّوايات حقيقةً فيها اضطراب، وهَلْ النّبي -صلى اللهُ عليهِ وسلَّم- أخَذَ معَهُ ابن مسعود؟ أم ذهَبَ بمُفرَدِهِ وابن مسعود كانَ يروي فقط؟

- بَعْض العُلَماء سَلَكَ مسلَكَ التَّرجيح، وقال أن الرَّاجِح هي رِوايَة ابن عبَّاس والتي عليها الأغلَب.
- وبعضهُم من قال لا، الرَّاجِح هي رواية ابن مسعود -كما فَعَلَ ابن العربي- قال: أنَّ النَّبي -صلى اللهُ عليهِ وسلَّم- كانَ يعلَم بوجودِهم، وقال: ابن مسعود يحكي عن سماعٍ مباشِر، والسُّورَة مكيَّة والحدَثْ مكِّي، وابن عبَّاس كان صغيرَ السِّنّ، فهنا الحديث أشبَه بمراسيل الصَّحابَة، وهي مقبولَة، فابن عبَّاس يحكي عمّن سَمِع، فهذا أحَد أوجُه ترجيح ابن مسعود،
- لكن بعضُهَم قال: الأحاديث أصلًا فيها اضطراب.

لذلِك كان المِسلَك الجيِّد مسلَك الإمام البيْهَقي؛ فقد اختار مسلَك الجَمْع بين الرِّوايات...قال: وما المانِع أن يكون حدَث هذا؟! وأن روايَة ابن عبَّاس حدَثِت، رواية: أن النَّبي -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- لم يكُن يعلَم بمجيئِهم، وقامَ يُصلّي، واستمَعَ الجِنّ، ثُمَّ جاءَ وفْد مرَّة أُخرى كما في رِوايَة ابنِ مسعود؛ أي أن الرِّوايَة التي قالَت أن ابن مسعود ذهب مع النَّبي -صلَّى الله عليهِ وسلَّم-، وأن النَّبي -صلى اللهُ عليهِ وسلم- خطَّ لهُ خطًّا[٢]، وحذَّرَهُ أن يتعدَّى هذا الخَطّ، وإلا فإن الجِنّ سيتخطَّفُوا ابنَ مسعودٍ -رضيَ اللهُ عَنه- حدثت أيضا .

٢ [عن عبدالله بن مسعود:] أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ ليلةَ الجنِّ خطَّ حولَه فكان يجيئُ أحدُهم مثلَ سوادِ النخلِ وقال لي: لا تبرحْ مكانَك فأَقْرَأَهم كتابَ اللهِ عزَّ وجلَّ فلما رأى الرُّطَّ قال: كأنهم هؤلاءِ وقال النبيُّ ﷺ: أمعَك ماءٌ قلت: لا قال: أمعَك نبيذٌ قلت: نعم فتوضَّأ به أحمد شاكر (ت ١٣٧٧)، مسند أحمد ١٦٥/٦ • إسناده صحيح

فالخُلاصَة: الخِلاف هل الجِنّ هُمُ الجواسيس أم الوَفْد؟! والذي عليه الغالِب أنَّهُم الجواسيس، وهذه رِوايَة البُخاري التي ذُكِرَت في سَبَب نزول هذهِ الآيات.

إذًا سنكمل على هذا القوْل –مع عدم إنكار القول الثَّاني–، وقد يكون القَوْل الثَّاني مُتَعلِّق بسورَة الأحقاف، لذلِك كثير من المفسِّرين يربِط بين هذهِ الصَّفحَة، وصفحِة سورة الأحقاف: {وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ}

مفاهيم تركز عليها السورة

قدَّمنا للسُّورَة مُقَدِّمَة طويلَة: مسألة مكَّة، وواقِع الإعراض ، ونريد أن نركِّز أكثر على واقِع الإعراض، لأنه قد يُؤدِّي إلى ضَعفْ الدَّاعيَة وتوانيه عن تبليغ الرِّسالَة، دائمًا إعراض النَّاس يؤثِّر في نفسيَّة الدَّاعيَة، ويجعلُهُ لا يقوم بالتَّبليغ، فتَجِد الآيات تُرَكِّز على ذلك.

توجد مجموعة من المفاهيم تُرَكِّز عليها سورَة الجِنّ، سورَة الجِنّ تُرَكِّز على مجموعَة من القضايا:

- على أثَر القُرآن حتَّى على المخلوقات الأُخرى.
- ما يُؤثِّر على ثبات الدَّاعيَة على مبادئِه.
- على أهمية تبليغ الرِّسالَة.
- على جُهد أهل الباطِل في تشويه الرِّسالَة.

مجموعَة من المفاهيم تُرَكِّز عليها سورَة الجِنّ، **الذي يستصحِب المعاني التي جاءَت في سورَة نوح والجُهد الدَّعوَي المبذول في سورَةِ نوح، ثُمَّ الثَّبات على البلاغ في سورَةِ الجِنّ، ثُمَّ الزَّاد. سورَة نوح وسُورَة الجِنّ حقيقةً الذي يتلَقَّاهما تَلَقِّيًا حقيقيًا يشعُرُ بِثِقَل، معانٍ ثقيلة جدًا، تُطالِب الدَّاعيَة ألا يُصيبَهُ فُتور ولا ضعْف، فمن أينَ الزَّاد؟ فتأتي سورَةُ المُزَّمِّل وكأنها تقطَع الخَطّ الدَّعوي.**

سورَة نوح وسورَة الجِنّ وسورَة المدَّثِّر خطّ دَعوي متتالي، جهد دعوي عظيم في سورَة نوح وسورَة الجِنّ وفي سورَة المدَّثِّر: {قُمْ فَأَنذِرْ}[المدثر:٢] جُهد دعوي، **يُقطَع هذا الجُهد الدَّعوي بسورَةِ المزَّمِّل: {قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا}[المزمل:٢]، وكأنَّ في اختراق سورَةِ المزَّمِّل لهذا الجُهد الدَّعوي إشارَة أنَّكَ لن تستطيع أن تقومَ بهذا الجُهد الدَّعويِّ العَظيمِ المُستَمِرِّ الدَّائم إلا بزادٍ من قيامِ اللَّيْل**، إلا بزادٍ

من سَفَرِ الرُّوح، وعُروجِ الرُّوح في قيامِ اللَّيْلِ لتُشاهِد الآيات، وتُشاهِد الغَيْب، وتطَّلِع على قُدرَةِ اللهِ –سُبحانَهُ وتعالى–، ثُمَّ تعود إلى عالَمِ الشَّهادَة مرَّةً أُخرى لتُكمِل المسير، كما تكلَّمنا عن ذلِك في سورة المزَّمِّل.

الهمزات المفتوحة والمكسورة

يقولُ اللهُ –سُبحانَهُ وتعالى–، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا} –سنتابع مع قراءة حَفص–.

يكون الوَحْي بِفَتْح الألِف: {أوحِيَ أنَّهُ}، وكلام الجِنِّ: {قالوا إنَّا} مكسورًا، وكُل السُّورَة: {وَأَنَّا ظَنَنَّا} و{وَأَنَّهُ} و{وَأَنَّا} حتى قولِهِ –سُبحانَهُ وتعالى–: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ} فيها خِلاف طويل في ما الهَمَزات المفتوحَة وما الهَمَزات المكسورَة، خِلاف في القِراءات، بل ابن عطيَّة يقول: "اختلَفَ النَّاسُ اختلافًا كبيرًا في الفَتْح والكَسْر، يطولُ حَصرُهُ وتَقصّي معانيه" صعب جدًا؛ لأن بعض المفسِّرين قال: "كُلُّ ما جاءَ مفتوحًا فهو مما أُوحِيَ إلى النَّبيِّ –صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم– وكُلُّ ما جاءَ مكسورًا فهو من قوْلِ الجِنّ، وهناك آيات لا تحتَمِل إلا أنها أن تكون من الوَحي".

وتوجد قِراءات مثل قراءة نافِع التي سار عليها بعض المفسِّرين، أن مُعظَم الآيات جاءَت مكسورَة، فحقيقةً لا أريد أن أدخلكم في التَّفاصيل.

لكِن بعض المفسِّرين قال –على سبيل الإيجاز– : أن الهمزة التي جاءت مفتوحة إما لأجل {أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ} و{وَأَنَّهُ} و{أُوحِيَ إِلَيَّ} لكن في بَعْض القراءات مثل قِراءَة حفْص يقول الله: {وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا} من الذي قال: {وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا}؟! الذي قاله الجِنّ، فمن المفروض على هذا القول أن كلام الجِنّ يأتي مكسورًا، لذلِك كسَرَ هذهِ الهَمزَة بعضُ القُرَّاء.

فقال بعضُهُم قد يكونُ معطوفًا على جرّ –على حرف مجرور– فيكون وكأن معنى الآيات (وبأنَّهُ قالوا) و(بأنَّهُ كان).

فالخُلاصَة، من يريد أن يرجَع لتفاصيل يرجَع لبَعْض التَّفاسير التي اهتمت بالقضايا اللغويَة، مثل تفسير الإمام البَسيط للواحِدي، وأيضًا القُرطُبي فصَّلَ في هذهِ القضيَّة.

حسنًا، حتى ننتهي من قصة الهَمَزات من البِدايَة مثلما قُلت: ابن عطيَّة قال: "الأمر فيها طويل"، وذكرت لكم القاعدَة التي أوجَزَها بعضهُم:

- أن المفتوحَة للوحي، أو معطوف على مجرور.
- والمكسور من قول الجِنّ، والخِلاف طويل في القِراءات.

بشرى للرسول وللمسلمين وتعريض بالمشركين

{قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ} النَّبي -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- أُمِرَ أن يقول هذا الأمر، وأيضًا هُنا بِشارَة، لأننا قُلنا دائمًا -وهذا مثلما ذُكرت في درس المنهجيَّة المقترَحَة لدراسة سورَة-: استحضار الخَلفيَّة للآيات.

استحضار الخلفيَّة الدراميَّة للآيات تجعَل الكلِمات لها وَقْع مُختَلِف، واقِع الإعراض الشَّديد عن سماع القرآن، فكأنَّ النَّبيَّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- جاء ببشرى لهُ وللمسلمين المستضعَفين القِلَّة، كأن النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- يقولُ للمستضعفين: أيُّها النَّاس **أبشِروا فإنْ أعرَضَ هؤلاء فقَد جاءَ اللهُ -سُبحانَهُ وتعالى- بخَلقٍ جديدٍ غيرِهِم ليستَمِعوا إلى الوَحيْ**.

فهنا بُشرى: {قُلْ} كأن هنا بُشرى للنَّبي -صلى اللهُ عليهِ وسلَّم- وتُبَشِّير للنَّاس، {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ} وهُنا **تعريض بالمشركين؛ أيُّها المشركونَ إذا أعرَضتُم عن الاستماعِ للوحي فقد جاءَ اللهُ بخلقٍ جديدٍ ليستَمِعَ إلى الوحي**.

{قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ} انتبه استمعَ!، ورِوايَة البُخاري: (فلما سَمِعوا القُرآن تَسَمَّعوا لهُ)[٣]، ليس "قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ سَمِعَ".. لا، {اسْتَمَعَ}، وهنا **كيفَ أثَّرَ فيهم القُرآن، فالجِنّ كانوا قادمين يبحثون عن سبَب التَّغيير، ثم فوجئوا بصلاة النَّبيِّ –صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم– في صلاةِ الفَجْر، فتأثَّروا تأثُّرا مُباشِرا**، وهذا يدلّ على مثل تعبير إبراهيم السَّكران في مقالة جيّدة: "سطوة القُرآن عليهِم"، الجَميل هنا أنهم **تركوا أنفُسَهُم لأثَر القُرآن.**

أحيانًا الإنسان يُمانِع أثَر القُرآن مثلما حدث مع أبي الوليد لما ذَهَبَ إلى النَّبي –صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم– فقرأ النَّبيُّ –صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم– عليهِ سورَة فُصِّلَت[٤]، وكان يحدُث مع كثير من المشركين، أن يؤثر القُرآن فيهِم لكِنه يقوم بحالَة من المُمَانَعَة.

هؤلاءِ الجِنّ لم يمتَنِعوا من أثَر القُرآن، لم يُمانِعوا أثَرَ القُرآن، {أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ}: قيلَ النَّفَر تسعَة أو سِتَّة أو سَبعَة على خِلاف، {نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا} بعد : {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا}، هذهِ الكلِمَة قد يقولُها بعضُ

---

٣ [عن عبدالله بن عباس:] انْطَلَقَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ في طائِفَةٍ مِن أصْحابِهِ عامِدِينَ إلى سُوقِ عُكاظٍ وقدْ حِيلَ بيْنَ الشَّياطِينِ وبيْنَ خَبَرِ السَّماءِ، وأُرْسِلَتْ عليهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّياطِينُ، فَقالوا: ما لَكُمْ؟ فَقالوا: حِيلَ بيْنَنا وبيْنَ خَبَرِ السَّماءِ، وأُرْسِلَتْ عَلَيْنا الشُّهُبُ، قالَ: ما حالَ بيْنَكُمْ وبيْنَ خَبَرِ السَّماءِ إلّا ما حَدَثَ، فاضْرِبُوا مَشارِقَ الأرْضِ ومَغارِبَها، فانْظُرُوا ما هذا الأمْرُ الذي حَدَثَ، فانْطَلَقُوا فَضَرَبُوا مَشارِقَ الأرْضِ ومَغارِبَها، يَنْظُرُونَ ما هذا الأمْرُ الذي حالَ بيْنَهُمْ وبيْنَ خَبَرِ السَّماءِ، قالَ: فانْطَلَقَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهامَةَ إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺ بنَخْلَةَ، وهو عامِدٌ إلى سُوقِ عُكاظٍ وهو يُصَلِّي بأَصْحابِهِ صَلاةَ الفَجْرِ فَلَمّا سَمِعُوا القُرْآنَ تَسَمَّعُوا له، فَقالوا: هذا الذي حالَ بيْنَكُمْ وبيْنَ خَبَرِ السَّماءِ، فَهُنالِكَ رَجَعُوا إلى قَوْمِهِمْ، فَقالوا: يا قَوْمَنا {إنّا سَمِعْنا قُرْآنًا عَجَبًا، يَهْدِي إلى الرُّشْدِ فَآمَنّا به ولَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنا أحَدًا} وأَنْزَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ على نَبِيِّهِ ﷺ: {قُلْ أُوحِيَ إلَيَّ أنَّه اسْتَمع نَفَرٌ مِنَ الجِنِّ} وإنَّما أُوحِيَ إلَيْهِ قَوْلُ الجِنِّ
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٤٩٢١ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٤٩٢١)، ومسلم (٤٤٩)

٤ [عن جابر بن عبدالله:] اجتَمَعَتْ قُرَيشٌ للنَّبيِّ ﷺ يومًا، فقالوا: انْظُروا أعلَمَكم بالسِّحرِ والكِهانةِ والشِّعرِ، فليَأْتِ هذا الرَّجُلَ الذي قد فرَّق جماعتَنا، وشتَّت أمرَنا، وعابَ دينَنا، فليُكلِّمْه ولْيَنظُرْ ما يَرُدُّ عليه. قالوا: ما نعلَمُ أحدًا غيرَ عُتبةَ بنِ ربيعةَ، قالوا: أنتَ يا أبا الوليدِ، فأتاهُ عُتبةُ فقال: يا مُحمَّدُ، أنتَ خيرٌ أمْ عبدُ اللهِ؟ فسكَتَ رسولُ اللهِ، ثم قال: أنتَ خيرٌ أم عبدُ المطَّلِبِ؟ فسكَتَ رسولُ اللهِ ﷺ، قال: فإنْ كُنتَ تزعُمُ أنَّ هؤلاء خيرٌ منكَ، فقد عَبَدوا الآلهةَ التي عِبتَ، وإنْ كُنتَ تزعُمُ أنَّكَ خيرٌ منهم، فتكلَّمْ حتى نسمعَ قولَكَ، إنَّا واللهِ ما رأينا سَخلةً قطُّ أشأَمَ على قومِكَ منكَ، فرَّقتَ جماعتَنا، وشتَّتَّ أمرَنا، وعِبتَ دينَنا، ففضحْتَنا في العربِ حتى لقد طارَ فيهم أنَّ في قُريشٍ ساحِرًا، وأنَّ في قُريشٍ كاهِنًا، واللهِ ما ننتظِرُ إلَّا مثلَ صَيحةِ الحُبلى بأنْ يقومَ بعضُنا إلى بعضٍ بالسُّيوفِ حتى نتفانى، أيُّها الرَّجُلُ، إنْ كان إنَّما بكَ الحاجةُ جَمَعْنا حتى تكونَ أغنى قُريشٍ رَجُلًا، وإنْ كان إنَّما بكَ الباءةُ فاختَرْ أيَّ نِساءِ قُريشٍ شِئتَ، فنُزوِّجْكَ عَشرًا. قال له رسولُ اللهِ: أفَرَغتَ؟ قال: نَعَمْ، قال: فقال رسولُ اللهِ ﷺ: بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ {حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} حتى بَلَغَ: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ} [فصلت: ١ - ١٣]، فقال عُتبةُ: حسْبُكَ حسْبُكَ، ما عندَكَ غيرُ هذا؟ قال: لا، فرَجَعَ إلى قُريشٍ، فقالوا: ما وراءَكَ؟ قال: ما تَرَكتُ شيئًا أرى أنَّكم تُكلِّمونه به إلَّا كلَّمتُه، قالوا: هل أجابَكَ؟ قال: نَعَمْ، والذي نَصَبَها بَنِيَّةً ما فَهِمتُ شيئًا ممَّا قال غيرَ أنَّه قال: {أَنْذَرْتُكُمْ صاعِقَةً مِثْلَ صاعِقَةِ عادٍ وَثَمُودَ}، قالوا: ويْلَكَ! يُكلِّمُكَ رَجُلٌ بالعربيةِ لا تَدري ما قال؟ قال: لا، واللهِ ما فَهِمتُ شيئًا مما قال غيرَ ذِكرِ الصاعقةِ.
شعيب الأرنؤوط (ت ١٤٣٨)، تخريج العواصم والقواصم ٤/ ٩٨ • [إسناده] حسن • أخرجه ابن أبي شيبة (٣٧٧١٥)، وعبد بن حميد (١١٢١)، وأبو يعلى (١٨١٨)

المشركين ثُمَّ يعودُ إلى الشِّرك والعياذُ بالله: "إنَّ عليهِ لحلاوَة، وإنَّ أعلاهُ لمثمِر، وإنَّ أسفَلَهُ لمغدِق"[٥]، كما قال أحدُ المشركين -كما في سورةِ المدثِّر- لكِن هؤلاء قالوا وأسلَموا، قالوا: {إِنَّا} للتأكيد، {سَمِعْنَا} عندما رجعوا إلى قومهم، سمعنا {قُرْآنًا عَجَبًا}، كلمة {قُرْآنًا عَجَبًا} هل أنت مُتخيِّل ما معنى جِنّ؟! سمعوا شِعْر وسمعوا كل شيء، وهم من كانوا يغذُّون النَّاس بالفساد، والأغاني، والباطِل.

القرآن يهدي إلى الرشد

يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾

عندما يقول الجِنِّي هذا كلام عجيب، هل تتخيل اعتراف الجِنّ بأن هذا الكلام ليسَ كأيِّ كلام؟! وكُنت تحدثت بالتَّفصيل في درس اختلاف القرآن في تأثيره على العقائِد، أن القُرآن مختلِف في أثَرِه، وكيفَ يُقرِّر العقائد، في درس اسمه: مُميزات الخِطاب القُرآني وطريقتُه في تقرير العقائد، تكلَّمتُ على مسألة سطوة القُرآن على النَّفْس.

هذا ما حدَثَ معهُم فقالوا ولم يتمالكُوا أنفُسَهُم: {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا} القُرآن -وهذا فَهْم عميق منهُم- ليسَ مُجرَّد شيء يتعجَّب منه الإنسان وفقط! لا {قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي}، القُرآن يُغيِّر، القُرآن يصلُح للتَّطبيق، القُرآن يهدي!

الذين أوتوا العِلْم يعلمونَ أنَّ: {هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}[الإسراء:٩]، فالقُرآن ليس مُجرَّد كلام طيِّب، كلام جميل نسمَعُهُ ونستَمتِع، ومشاعِر جَميلَة، ودموع حارَّة، وأثَر نفسي جيِّد في القَلْب وفقط! -وهذا يحدث معَ القُرآن- لكِن **بعد أن استمعوا إلى القُرآن فهِموا أنَّ هذا القُرآن يُغيِّر، وهذا القُرآن يأخُذُ لمعنى الهِدايَة وهي التَّحرُّك بلُطف**، مثلما أشار الدكتور فريد الأنصاري في مقدِّمَة سورَة البَقَرَة: تغيير بِلُطْف.

٥ [عن عكرمة مولى ابن عباس:] قصَّةُ الوليدِ بنِ المغيرةِ أنَّهُ قالَ لرسولِ اللهِ ﷺ اقرأ عليَّ فقرأَ عليهِ {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[النحل:٩٠] قالَ أعِدْ فأعادَ النَّبيُّ ﷺ فقالَ واللَّهِ إنَّ لَهُ لحلاوةً وإنَّ عليهِ لطلاوةً وإنَّ أعلاهُ لمثمِرٌ وإنَّ أسفلَهُ لمغدقٌ وما يقولُ هذا بشرٌ وقالَ لقومِهِ واللَّهِ ما فيكم رجلٌ أعلمُ بالأشعارِ منِّي ولا أعلمُ برجزِهِ ولا بقصيدتِهِ منِّي ولا بأشعارِ الجنِّ واللَّهِ ما يشبهُ هذا الَّذي يقولُ شيئًا من هذا واللَّهِ إنَّ لقولِهِ الَّذي يقولُ حلاوةً وإنَّ عليهِ لطلاوةً وإنَّهُ لمثمرٌ أعلاهُ مغدقٌ أسفلُهُ وإنَّهُ ليعلو وما يُعلى وإنَّهُ ليحطِّمُ ما تحتَهُ
البيهقي (ت ٤٥٨)، الاعتقاد للبيهقي ٣١٠ • مرسل

{يَهْدِي}: يأخُذُكَ القُرآن ويسيرُ بِكَ في طريقٍ مُختَلِف عما كُنتَ عليه، فالقُرآن يُغيِّرُ من حياتِك، وهذا ما حدَثَ معَهُم، {إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي}، القرآن يهدي، يغيّر، يهدي إلى ماذا؟! لأنه من الممكِن أن آخر يُحاوِل أن يأخُذَ بأيديهِم بِلُطْف إلى الضَّلال -كما يفعَل إبليس- لا، هذا: {يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ}.

معنى أن الجِنّ الذينَ أرسَلَهُم إبليس قالوا عنِ القُرآن: أنَّهُ يهدي إلى الرُّشْد، كَلِمَة **الرُّشْد كلِمَة عظيمة وهي من مفاتيح فهم سورة الكهف** -إن شاءَ الله إن مَنَّ اللهُ -سُبحانَهُ وتعالى-علينا بتفسيرسورَة الكَهْف نتكلم عنها.

كلِمَة الرُّشد في القُرآن كلمة عظيمة، كيفَ يكونُ الإنسانُ راشِدًا؟! وأن يَصِلَ إلى مُرادِ اللهِ -سُبحانَهُ وتعالى؟

من معاني الرُّشْد التي وضَّحَتها سورَةُ الكَهْف وغيرُها من السُّوَر: رؤيَةُ الأشياء على حقيقتِها، الإنسان الرَّاشِد هو الذي لا يُفتَن بالزِّينَة، -مثلما سنذكُر إن شاءَ الله في سورَةِ الكَهْف-.

فهنا: {يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ} معنى هذا أنَّهُم فهِموا من سماعِهِم للوَحيْ أنَّ الحديث السَّابِق كان ضلالًا، وأنَّ الحديث السَّابِق كانَ باطِلًا، وأنَّ حديث إبليسَ معهُم -عليهِ لعنةُ الله- كانَ فيهِ ضلال وتَدْليس، {فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ}، فتأتي الفاء العاطِفَة المباشَرة: {فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا}، أي **أخذوا قرارا فوريا، الفا العاطِفَة السَّريعَة**، ليس مثل أبو الوَليد وغيرِهِ عندما استمعوا إلى القُرآن : واللهِ حديث جميل وكُلّ شيء، لكن في آخِر الأمر لا نستطيع أن نغيَّر من أنفسِنا!

يوجد أناس تسمَع القُرآن وتتأثَّر وتَبكي لكن؛ لا، لا، أنا لا أستطيع أن أغيَّر حياتي.

{فَآمَنَّا بِهِ} وهنا فهموا -وهذه نقطة خطيرة للأسَف تغيب عن بَعْض المسلمين-

فهموا أن الإيمان جُزئين: الإيمان: لا إلهَ إلا الله، نفيٌ وإثبات، أنْ تكْفُرَ بالطَّاغوت وأن تُؤمِنَ بالله.

فهنا عندما قالوا: {فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ} لَنْ القاطِعَة، {لَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا}، انتبهوا! كلِمات الجِنّ مهِمَّة حتى تفهِّمنا ماذا كانَ يفعَل إبليس معهُم؟! وإلى ماذا كان يدعوهُم؟

إبليس كان يدعوهُم إلى عكْس الرُّشد، إلى الشِّرْك، {وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا} ما هذا؟! آيات سمعوها قَدرًا، النَّبي -صلى اللهُ عليهِ وسلَّم- كان واقِفاً يصلِّي، أيًّا كانت هذه الآيات.

حاولت البحَث حقيقةً في الرِّوايات، أذكُر قديمًا من سنوات قرأت أن النَّبي -صلى اللهُ عليهِ وسلَّم- كان يقرأ سورَة مريَم، وبحثت مرَّة أُخرى عن المصدَر ولم أجِدهُ للأسَف، ثُمَّ قرأت أثر أنَّهُ كان يقرأ سورة العَلَق أو غيرِها من السُّوَر.

الخُلاصَة أنه أيًّا كان، مجموعة آيات في صلاةِ الفَجْر خَرَجوا منها بهذهِ المعاني، هذا يدُلّ بوضوح **أنَّ للقُرآنِ مقاصِدَ مُكثَّفَة معيَّنة، إذا استمَعَ الإنسانُ إلى مجموعَة من الآيات، أو سورَة من السُّوَر يخرُج بهذهِ المقاصِد.**

من أهَمِّ مقاصِد القُرآن قضيَّةُ التَّوْحيد، من يستَمِع إلى آياتٍ من القُرآن أو سُوَر من القُرآن -استماعًا حقيقيًا- لابُدَّ أنْ يخرُجَ بأهميَّة قضيَّة التَّوْحيد، فثُلُثُ القُرآن: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}...الذي يغيب عنهُ قَضيَّة التَّوحيد، ونَفي الشِّرْك، وتعظيم الله، {وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا}، والبُعْد عن الاستعاذَة والاستغاثَة بغيرِ رَبِّنا فعنده اضطراب، يوجد عنده خلل في فَهْمه للمَقصِد الرَّئيسي للوَحي!

من المقاصِد الرَّئيسيَّة للوَحْي تعظيمُ الله -سُبحانَهُ وتعالى-، هم استمَعوا إلى بِضع آيات في صلاةِ الفَجْر من النَّبي -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- وخرَجوا بهذه المعاني، قالوا: {يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ}، فأخذوا قرار الإيمان: {وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا}.

تعظيم الله وتنزيهه عن الصاحبة والولد

وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾

ومن المعاني التي استقرّت في نفوسهِم: {وَأَنَّهُ} انظر ماذا فعلت مجموعة آيات! {وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا} جدُّ: العَظَمَة والمُلْك، {جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا}

هل قوله تعالى {مَا اتَّخَذ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا} لأنهُم سمعوا سورَة مَريَم؟! أم لأن إبليس كان بدأ ينشُر هذهِ الشُّبهَة؟! لأن بعض المفسّرين قال: هؤلاء الجِنّ كانوا يَهود –الذين في سورَة الأحقاف قالوا{إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ}: هَلْ هُم من نَشروا شُبهة النَّصرانيَّة؟! وأنه: {كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ} مثلما في سورَة الكَهْف، هذه الكَلِمَة الباطِلَة التي ضلَّ بسببِها كثير من النَّاس كما يحدُث مع النَّصارى الآن، أيًّا كان السَّبَبْ الأمر يحتاج إلى بَحْث وتدبُّر.

لماذا قالوا {مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا}؟! ما الذي سمعوه من الآيات؟! لماذا؟! هل هذا المعنى كانَ يجولُ بِخاطِرِهِم؟! هم الذينَ نشروا هذهِ الشُّبهَة ففهِموا من هذهِ الآيات أنَّهُ –سُبحانَه وتعالى– ينزه عن ذلك، بعض المفسّرين أشارَ إلى معنى وهو يجيب عن سؤال: ما الرَّابِط بين: {تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا} وبين {مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا}؟! قالوا: **الجَدّ؛ الملك والحظّ والقُوَّة والسُّلْطان الذي لا يحتاجُ معهُ إلى معين.**

الإنسانُ بطبيعتهِ مهما أُوتِيَ مِن سُلطان يحتاج معهُ إلى مُعين، فيهِ شَهْوَة يحتاج إلى الوَلَد، ويحتاج إلى الأعوان، لكن {اللَّهُ أَحَدٌ}، {لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ}، فَرْدٌ صَمَدْ، فقالوا: {مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا}.

إذًا من مقاصِد القُرآن الرَّئيسيَّة تعظيمُ الله، وتفريده بالتَّوْحيد –سُبحانَهُ وتعالى.

[حسنًا،سيكون الواجب العَمَلي لكم أن تجمعوا أثَر القُرآن على الجِنّ، ومن الواجِبات العمَليَّة –سواء أقلناها نحن أم أنتم ستفعلونها– جُهْد أهل الباطِل في صرْف النَّاس عن الوَحْي.]

لتكتشف السفه يجب الرجوع للوحي

وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾

{وَأَنَّهُ} هم قالوا: {يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا (٣)} ظلوا يتفكروا، ويقارنوا، حينما يدخُلُ النُّورُ إلى قلبِ إنسان؛ يُقارِن بينَ هذا النُّور وبين الماضي من الشَّهوات والشُّبُهات.

فقالوا: {وَأَنَّهُ} ما هذا الذي كنا نسمعه؟! {وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا}، انتبهوا في هذه الثلاث كِلمات، كلام الجِنّ هنا مُهِمّة جدًا، {وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ}

١. {سَفِيهُنَا}
٢. {عَلَى اللَّهِ}
٣. {شَطَطًا}.

السَّفيه في قولُ الجمهور أنه إبليس -عليهِ لعنةُ الله-، هذا رئيسهم الذي كانوا يعظِّمونه، بل هو الذي أرسَلَهُم فاستجابوا.

ماذا كان يفعل إبليس معهم؟! أولًا -وانتبه إلى ترتيب الكَلام- قالوا: {سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا} بعدَ أن كانَ رئيسًا مُعظَّمًا مُرشِدًا مُعلِّمًا لهُم أصبحَ سفيها، **لن تكتَشِفَ سفاهةَ كثيرٍ من الأفكارِ الضَّالَّة إلا بعدَ الارتباط بالوَحي.**

كثير من النِّساء اللاتي يخدعن الآن بفكر النَّسويَّة وغيرها لن تكتشِف سفاهَة هذهِ الأفكار إلا بالرُّجوع للوحي، كثير من الشَّباب المخدوع باللِّيبراليَّة والحُريَّة، وغيرَ ذلِك لن يكتَشِفَ سفاهَة هذهِ الأفكار إلا بالرُّجوعِ إلى الوحي.

انظُر كيفَ عادوا إلى الرُّشدِ ووَسَموا الكلامَ السَّابِق، والعقائِد السَّابِقَة بالسَّفاهَة، انظر عندما يكتَشِف إنسان أنهُ كانَ يعيش في الوَحْل.

{وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا}؛ لَم يقولوا رئيسُنا، قالوا سفيهُنا {عَلَى اللَّهِ شَطَطًا} ما هذا؟! إبليس كان يركز أن يعطيهم دروس عقيدَة لكن عقيدَة باطِلَة؟! إبليس كان مُصَمِّمًا أن يتحدث عن ربنا كثيرًا؟!

لم يكن يقول أي حديث، بل كان إبليس مُصَمِّمًا أن يقول: {عَلَى اللَّهِ شَطَطًا} الشَّطَطْ: البَعيد، الجَوْر البعيد، الشيء البَعيد جدًا، فإبليس كان يُعطي دروس في العَقيدَة الضَّالَّة جدًا التي تُبعِدُهُم عن اللهِ – سُبحانَهُ وتعالى–.

فكان إبليس حريصًا على صَرْف النَّاس عن العَقيدَة الصَّحيحَة، فلا بد أن يكون أهل الحَقّ من أحْرَص النَّاسِ على جَلْب النَّاسِ للعَقيدَة الصَّحيحَة.

إذا كان أهل الباطِل –وعلى رأسِهِم إبليس– كانَ حريصًا أنْ يتكَلَّمَ على اللهِ شَطَطا، وكانَ يتكلَّم كثيرًا، فحينما عُرِضَ الحَقّ –**وهذا من وسائِل دَفع الباطِل :عَرض الحَقّ**– حينما عُرِضَ الحَقُّ عرْضًا صحيحًا مِن خِلالِ الوَحي أيقَنَ هؤلاء وعلِموا أن ذلك كانَ سفاهةً، أنَّ حديث إبليس كانَ مُجرَّد سفاهَة: {وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا}.

فهناك دروس، وتركيز من المُلحِدين وغيرهُم، ومن الشُّبُهات عن الله لصَرْفِ النَّاسِ –والعياذُ بالله– عن حُبِّ الله.

{وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا}، من الممكن أن يقول أحدهم: وما الذي جعلك تصدَّقهُ؟! فهم يلتَمِسوا لأنفسُهم العُذر، لكِن للأسَف هذا العُذر لن يفيد كثير ممن يشاهد مقاطع اليوتيوب للمُلحِدين، ومن يترك نفسُه للشُّبُهات، ومن يدخُل مواقِع بها شُبُهات، ويَظُنّ أن هؤلاء النَّاس يقولون الصِّدق.

يوجد أناس عندما يشاهدون بَعْض المقاطِع ويكون من يقدِّم المقطَع مُلحِد لكن مُلحِد ظَرِيف، ويأتي بمصادِر علميَّة، ويقول لهُم انظروا في المصادِر و...و... هو يعتَقِد أن هذا لن يكذب على الله، فعندما يفعل شخص هذا ويفتِن النَّاس في دينهِم، يقول: أنا لم أكن أتصوَّر أنه سيكذِب على ربنا!!!

خطورة أن تسلم أذنك لأي أحد

وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾

{وَأَنَّا ظَنَنَّا} -أي الجِنّ- {أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا}، لم نكن نصدق أبدًا أن هناك من يكذب على ربنا، لا، بل **هناك أناس يكذبون على ربنا، يوجد أناس يتَعَمَّدون الكذِب على الله، ويوجد أناس لا يتَعَمَّدون فقط الكذِب على الله بل أن يقولوا على اللهِ شَطَطا!**

{وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا}، مثلما يقول الإمام الواحِدي: كُنَّا نَظُنُّهُم صادِقين -أي حديث إبليس والجِنّ والإنس هؤلاء- حتى استَمعنا إلى القُرآن ؛كنا نعتقد أن حديثهم صواب حتى استمعنا للقُرآن.

كما قُلت الإنسان يحدُث في حياتِهِ انقلاب، وهنا خُطورة أن يُسلِّمَ الإنسانُ أُذُنَهُ وعَقلَهُ إلى كُلِّ إعلاميٍّ، وإلى كُلِّ مَقطَع، وإلى كُلِّ أحَدْ يضَع في عقلِهِ ما يشاء، **الإنسان لا بُدَّ أن ينتَقِيَ من يستَمِعُ لهُ.**

{وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا}، هنا يبيِّنوا نُقطة مهمة جدًا؛ كيف وصل الجِنّ لمرحلة الطُغيان؟

الشعور بالاستغناء من أهم أسباب الكفر

وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾

انتبه! أن من أهمّ أسباب الشِّرْك والكُفْر -والعياذُ بالله- إحساس الاستغناء، كيف وصل الجِنّ لمرحلة الطُّغيان التي دَفعَتهُم إلى مزيدٍ من الشِّرك واستعباد الإنس أيضا؟! في الآية: {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}.

حقيقةً الآية هنا من الممكن أن يشعر الشخص أنه لا يفهم ما غرض السِّياق؟ في ظَنِّي -واللهُ أعلَى وأعلَم- أنه -مثلما ذكرتُ لكُم- إحساس الاستغناء عِندَ الجِنّ، وطاعة الإنس لهُم، واستِعاذةُ الإنسِ بِهِم دفَعَهُم إلى مزيدٍ من الشِّرْك، والحديث عنِ اللهِ -سُبحانَهُ وتعالى- شططا.

{وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}، قِيل أنه كانَ بعض الإنس في الجاهِليَّة إذا نزلوا وادِيًا، أو مكانا، والصَّحَراء في اللَّيْلِ مُرعِبَة، مُخيفَة، وكانوا يعيشون أجواء الأساطير والحِكايات والرُّعب، وأن هناك غول وأن شيئا ما أَكَل شخصا! وقِصَص تجعلهم يخافون؛ فكانوا إذا نَزَلوا الوادي قالوا: "نعوذُ بسَيِّدِ هذا الوادي"

يقصِدون الجِنّ والعياذُ بالله، كانوا يستعيذونَ بالجِنّ، بل كان الجِنّ أحيانًا يتلاعبون بِهِم، أي أن الجِنِّي يفعل شيئاً ما فإذا استعاذَ الإنسي بجني صَرَفَ عنهُ هذا الأذَى، فيزداد الإنسان -والعياذُ بالله- هذا الجاهِليّ ثِقَةً في الجِنّ، ويعودون ويحكون لبَعْضهم القِصَص: أنّي في مرَّة كنت في وادي كذا ولست أقدر على أخذ غنمتي فقلت يا فُلان من الجِنّ فأحضرها لي!

ويحكون لبعضهم قِصَص ويتناقَلونها ، فكانوا يستَعيذونَ بالجِنّ، {وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ}.

وهذه خُطورة مسألَة الاستعاذَة بأي مخلوق؛ **فالاستعاذَة لا تكونُ إلا باللهِ -سُبحانَهُ وتعالى-، بل كان السَّلَف يستَدِلُّون على أنَّ كلِمات اللهِ غيرَ مخلوقَة بأنَّنا نستعيذُ بكَلِماتِ الله**: (أعوذُ بِكَلِماتِ اللهِ التَّامَّات)[٦]، ولا يُستَعاذُ بمخلوق، إنما يُستَعاذُ بالخالِق، (إذا سألْتَ فاسألِ الله)[٧] فالإنسان إذا استعاذ فليستعذ باللهِ -سُبحانَهُ وتعالى-.

٦ [عن أبي هريرة:] جاءَ رَجُلٌ إلى النبيّ صَلّى اللهُ عليه وَسَلَّمَ فقالَ: يا رَسولَ اللهِ، ما لَقِيتُ مِن عَقْرَبٍ لَدَغَتْنِي البارِحَةَ، قالَ: أَما لو قُلْتَ، حِينَ أَمْسَيْتَ: أَعُوذُ بكَلِماتِ اللهِ التّامّاتِ مِن شَرِّ ما خَلَقَ، لَمْ تَضُرَّكَ. وفي رواية: أنه سَمِعَ أَبا هُرَيْرَةَ يقولُ: قالَ رَجُلٌ: يا رَسولَ اللهِ، لَدَغَتْنِي عَقْرَبٌ... بمِثْلِ حَدِيثِ ابْنِ وَهْبٍ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٧٠٩ • [صحيح]
[عن عبدالرحمن بن خنبش:] عن النبيّ صلّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أنه لما انحدرتْ عليه الشياطينُ من الأدويةِ والشعابِ أتاه جبرائيلُ فقال: قل أعوذُ بكلماتِ اللهِ التاماتِ من شرِّ ما خلق وذرأ وبرأ الحديثَ.
ابن باز (ت ١٤١٩)، حاشية بلوغ المرام لابن باز ٨٢٩ • إسناده صحيح على شرط مسلم
[عن خولة بنت حكيم:] إذا نَزَلَ أَحَدُكُمْ مَنْزِلًا، فَلْيَقُلْ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِن شَرِّ ما خَلَقَ، فإنَّه لا يَضُرُّهُ شيءٌ حتّى يَرْتَحِلَ منه.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٧٠٨ • [صحيح]

{وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}، الفاعِل هنا في زادوهم يعود على من؟! من الذي زاد من رَهَقا؟! يعني هَلْ زادَ الجِنُّ الإنسَ رَهَقًا؟! أم زادَ الإنسُ الجِنَّ رَهَقًا؟! قالوا على حسَب معنى رَهَقًا أيضاً، يستقيم المعنى بكليهما في الآية لغةً.

لكِن على حَسَب معنى الرَّهَق، لأنَّ الرَّهَق فيه أقوال كثير جدًا منها قيل: إثمًا، وجُرأةً، وطُغيانًا، وخطيئةً، وغيًّا، وشرًّا، كُل هذه أقوال قِيلَت في الرَّهَق؛ فقالوا:

- لو قلنا إن معنى رَهَق تعَب ومشَقَّة وإعنات، فإنه لما استعاذ الإنس بالجِنّ، لم يعيذوهُم بل زادوهُم تَعَبا، لِمَ؟! لأنه لو حل الجن للإنس مُشكِلتُه فلن يستَعيذ به مرة أخرى، لكِن دائمًا يريد الجن أن يجعَل نقطة ضَعْف في الإنس من أجل أن يظل مستعينا به!

وهَكَذا أهلُ الباطِل، يُريدون أن يجعلوا دائمًا للإنسان نقطة ضعف، لأن الإنسان لو استغنى عنهُم سيخافون عدم رجوعه إليهم، يجب أن يضعوا نقطة ضَعف، فزادَ الجِنُّ الإنسَ رَهَقًا باستعاذَتِهِم، كما قال ربنا في سورَة مريم: {وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا}[مريم:٨٢]؛ يعني الإنسان إذا توجَّهَ إلى غيرِ الله قَد ينقَلِب هذا الشَّيْء عليْه، فهنا معنى فزادَ الجِنُّ الإنسَ رَهَقًا،

- أو فزادَ الإنسُ باستعاذَتِهِم بالجِنّ طُغيانًا، لكن ما الذي دعا إلى ذلك؟!

كما يقال في المثل العامي المصري: "يا فرعون مين فَرعَنَك، قال : مالقيت حد يلمّني"، هذا بالضبط ما حدث، ما الذي دفع الجِنّ ليزداد طُغيانًا وإثمًا وجُرأةً وغِشيان الحرام –كما يقول بعض المفسِّرين– ما الذي دفعهم إلى فعل هذا؟!

أن الإنسي كان يشعره بالطغيان، كما تجد الآن دَوْلَة ظالِمَة مُستَبِدَّة ويذهَب إليها المسلِمون ورؤساء المسلمين ويستَعيذون بِهِم ويطلبون منهُم العَوْن!، فتزداد طُغيانًا واستكبارا، لكِنها إذا حوربَتْ ووقفوا لهُم يخافون!، **فما الذي زاد الجن طُغيانًا ؟! استعاذةُ الإنسِ بهِم**، فزادَ الإنسُ الجِنَّ رهَقًا باستعاذَتِهِم، فهنا رَهَقًا ستكون بمعنى طُغيانًا وإثمًا وجُرأةً.

---

٧ [عن عبدالله بن عباس:] كنتُ خلفَ رسولِ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومًا قال يا غلامُ، إني أعلِّمُك كلماتٍ: احفَظِ اللهَ يحفَظْك، احفَظِ اللهَ تجِدْه تُجاهَك، إذا سألتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعنْتَ فاستعِنْ باللهِ، واعلمْ أنَّ الأمةَ لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيءٍ، لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه اللهُ لك، وإنِ اجتمعوا على أن يضُرُّوك بشيءٍ لم يضُروك إلا بشيءٍ قد كتبه اللهُ عليك، (رُفِعَتِ الأقلامُ وجَفَّتِ الصُّحُفُ)
الترمذي (ت ٢٧٩)، سنن الترمذي ٢٥١٦ • صحيح

أمن البعث من أسباب الشرك وكثرة المعاصي

وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾

{وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا}، انتبهوا يا جَماعة دائمًا نحن نقول: تحليل الكَلِمات في القُرآن مُهِمّ، لا أقصد الكَلِمات بمعنى المفرَدات، لا، كما تكلمت في درس أُصول الانحراف، **إن من وسائِل فَهْم أُصول الانحراف تحليل كلِمات الكُفَّار، وتحليل كلِمات المُنافِقين**، أيضًا هنا تحليل كلِمات الجِنّ. ما الذي دفع الجِنّ أن يُشرِك؟! لأنهُم كانوا سُذَّجًا،وتركوا أنفسُهُم لإبليس يعطيهم دروس عقيدَة في الباطِل، وحضَروا دروس شُبُهات لإبليس، اعتَقَدوا أن إبليس لن يكذِب فصدقوه دون أن يراجعوه{وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا}، الطُّغيان كان عندما شاهدوا قوة الجِنّ تزداد بسيطَرِتِهُم على الإنْس، فكان الاعتبار بالقُوَّة وليس بالمبادئ!

أكبَر مُشكِلَة هنا –من تحليل أسباب شِرْك الجِنّ– أن الإنسان يأمَن البَعْث، –ركِّزوا معي–**بمجرد أن فكرة البَعْث تخفت عندَ الإنسان فإن المعاصي تزداد.**

{وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا}، غياب منظومة وفكرة البَعْث عندَ أُمَّة أو عِندَ فرْد دائماً معه زيادَة في الطُّغيان، دائماً: {أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ}[الماعون:١]، أول ما يُكذِّب بالبَعث وبالدِّين يزداد الظلم مُباشرَةً؛ لأنه ما المانِع من الظُّلْم؟! هو شخص قَوي ويملك القُدرَة، فبالقُوَّة يأخُذ ما شاءَ من الحُقوق، ما لهُ وما ليسَ لهُ، إذاً ما الذي يمنعه مِنَ الظُّلْم؟!.كما قال تعالى{أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ}، بِمُجرَّد أن كَذَّبَ بالدِّين دَعَّ اليَتيم، دفعَهُ كالأنعام، {فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ (٢) وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ}[الماعون:٢-٣] أيرحمُ الضُّعفاء؟! لماذا يرحم الضُّعَفاء أصلًا؟! لذلِك المُلحِد الذي كان مضطردا مع نفسُه قال: نحن من الممكن أن نقتل الضُّعفاء فلا يوجد أي مشكِلَة أصلًا، فهنا: {وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا} **غياب فكرة البَعْث، يؤدِّي – والعياذُ بالله– إلى الطُّغيان والشِّرْك والجَبروت.**

الجن يريد العبث بالقدر والشرع

وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾

وبدأوا يحكون قصة التَّغَيُّر التي حدثت لهم، إذاً التَّغيُّر كيف حَدث؟! من مرحَلِة ما قبلَ الفَساد، ماهي المشاعِر التي تركتهم ينطَلِقون في الشِّرْك؟

فالسُّورَة بَدَأت بحَدَث مهيب النَّبي -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- يَقُصّ علينا، بَدأت الأقوال بمشاعِرُهُم تِجاه الوَحْي: {قُرْآنًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ}..

- القرارات التي اخذوها: الإيمان: {لَن نُّشْرِكَ}،
- استشعار العَظَمَة: {تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا}،
- استحضار الماضي: {كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا}..
- الدُّروس التي كانوا يأخذونها: {عَلَى اللَّهِ شَطَطًا}، إحساس بأن إبليس لم يكذب علينا بل على الله.

لكن لَحظَة االتَّغيُّروبدايته من أين جاءت؟! أمن {وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ}؟!، {مِنْهَا} أي: السَّماء، لا،

بل البداية: {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ}، {لَمَسْنَا} قيلَ: قارَبنا، كانوا يقعدون عند السَّماء كي يستَرِقوا السَّمْع، وانظُر هنا إلى أغرَاض الجِنّ، الجِنّ يريدون دائمًا أن يعبَثوا بالإنْس، وشيخ الإسلام كان له كلام طويل في أغراض الجِنّ فمِنهُم مَنْ غرَضُه الشِّرْك، ومنهُم مَن يعبَث لمجرَّد العَبَث، قال: منهُم من هو كالإنسان، من الممكن أن يأتي شخص تافِه يريد أن يُفسِد ويعبث بالنَّاس فيحفر حُفرَة ليوقع شخصاً بدون هدَف، لمجرَّد العبَثْ!، قال: **مِنَ الجِنِّ من يعمل ذلِك، يعبَث بالنَّاس؛ فالجِنّ كانوا يريدون أن يعبَثوا على مستوى الشَّرْع وعلى مستوى القَدَر، فعلى مستوى القَدَر كانوا يريدون أن يستَرِقوا السَّمْع ويسمعوا التَّقديرات التي تحدُث في السَّماء ويتكلَّم بِها اللهُ -سُبحانَهُ وتعالى- إلى الملائِكَة، وتتناقلُها الملائكَة فينزلوا بسرعة مُباشرَةً** -والحديث طويل في البُخاري وفي غيرِه-:

أن الجن كانوا يقفون فوقَ بعضهِم البَعْض حتى يَصِلوا إلى السَّماء ويستَرِقوا السَّمْع، فيُحاوِل استراق السَّمع، فيسمَع أمْر قَدَري؛ فيذهَب سريعًا إلى الكاهِن يُلقيهِ في أُذُنِ الكاهِن، فالكاهِن يكذِب معهُ أو الجِنّ يكذِب معهُ كذبات ويُخبِر النَّاس، فَيَظُنُّ النَّاس أن هُناكَ من يطَّلِع على الغَيْب، فيُفقِد النَّاس الثِّقَة بالله، أو يزداد ثِقَة النَّاس بالكاهِن وبالجِنّ -والعياذُ بالله-[٨]، **هذا من الأمور التي يُريدُها الجِنّ: العَبَث بالقَدَر عندَ النَّاس... وأيضًا بالشَّرْع.**

فلما أراد أن يستَمِع الوَحيْ يُريدُ أن يأتي بوحيٍ مُماثِل، وهذه من المحاولات كالمحاولات التي ذكرت مع النبي -صلى اللهُ عليهِ وسلَّم- ذهب لابن صيَّاد وخبأَ لهُ شيئًا وقال لهُ: ماذا خبأتُ لك؟! فقال ابنُ صَيَّاد: الدُّخّ[٩]، فَلَم يتَكلَّم أكثَر من ذلِك.

فالعُلَماء في شَّراح صحيح مُسلِم قالوا: ماذا يعني الدُّخّ؟! فقيل كانَ يُريدُ كلِمَة الدُّخان، قالوا: لَمَ لَمْ يقل الدُّخان؟! قال بعضهم: كانَ يُريد آيَة: {فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ}[الدخان:١٠]، والنَّبي -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- قالَ لهُ خبأتُ لكَ شيئًا، يعني أضمَرتُ لكَ آيَة، فلاحِظ أن الكاهِن أقصى ما يأتي به ليست آيَة، بل لا يستطيع أن يأتي حتى بكلمة واحدة كاملة من الآية!، لن يستَطيعوا أن يأتوا بمثلِ الوَحيْ.

٨ [عن أبي هريرة:] إذا قَضى اللَّهُ الأمْرَ في السَّماءِ، ضَرَبَتِ المَلائِكَةُ بأَجْنِحَتِها خُضْعانًا لِقَوْلِهِ، كَأنَّهُ سِلْسِلَةٌ على صَفْوانٍ، فإذا فُزِّعَ عن قُلُوبِهِمْ قالوا: ماذا قالَ رَبُّكُمْ؟ قالُوا لِلَّذِي قالَ: الحَقَّ، وهو العَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَسْمَعُها مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، ومُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ - ووَصَفَ سُفْيانُ بكَفِّهِ فَحَرَفَها، وبَدَّدَ بيْنَ أصابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الكَلِمَةَ فيُلْقِيها إلى مَن تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيها الآخَرُ إلى مَن تَحْتَهُ، حتَّى يُلْقِيَها على لِسانِ السّاحِرِ أوِ الكاهِنِ، فَرُبَّما أدْرَكَ الشِّهابُ قَبْلَ أنْ يُلْقِيَها، ورُبَّما ألْقاها قَبْلَ أنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ معها مِئَةَ كَذْبَةٍ، فيُقالُ: أليسَ قدْ قالَ لنا يَومَ كَذا وكَذا: كَذا وكَذا، فيُصَدَّقُ بتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتي سَمِعَ مِنَ السَّماءِ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٤٨٠٠ • [صحيح]

٩ [عن عبدالله بن عمر:] أنَّ عُمَرَ انْطَلَقَ مع النبيِّ ﷺ في رَهْطٍ قِبَلَ ابْنِ صَيّادٍ، حتّى وجَدُوهُ يَلْعَبُ مع الصِّبْيانِ عِنْدَ أُطُمِ بَنِي مَغالَةَ، وقدْ قارَبَ ابنُ صَيّادٍ الحُلُمَ، فَلَمْ يَشْعُرْ حتّى ضَرَبَ النبيُّ ﷺ بيَدِهِ، ثُمَّ قالَ لِابْنِ صَيّادٍ: تَشْهَدُ أنِّي رَسولُ اللَّهِ؟، فَنَظَرَ إلَيْهِ ابنُ صَيّادٍ، فَقالَ: أشْهَدُ أنَّكَ رَسولُ الأُمِّيِّينَ، فَقالَ ابنُ صَيّادٍ للنبيِّ ﷺ: أتَشْهَدُ أنِّي رَسولُ اللَّهِ؟ فَرَفَضَهُ وقالَ: آمَنْتُ باللَّهِ وبرُسُلِهِ فَقالَ له: ماذا تَرى؟ قالَ ابنُ صَيّادٍ: يَأْتِينِي صادِقٌ وكاذِبٌ، فَقالَ النبيُّ ﷺ: خُلِّطَ عَلَيْكَ الأمْرُ ثُمَّ قالَ له النبيُّ ﷺ: إنِّي قدْ خَبَأْتُ لكَ خَبِيئًا فَقالَ ابنُ صَيّادٍ: هو الدُّخُّ، فَقالَ: اخْسَأْ، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ فَقالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عنْه: دَعْنِي يا رَسولَ اللَّهِ أضْرِبْ عُنُقَهُ، فَقالَ النبيُّ ﷺ: إنْ يَكُنْهُ فَلَنْ تُسَلَّطَ عليه، وإنْ لَمْ يَكُنْهُ فلا خَيْرَ لكَ في قَتْلِهِ. وقالَ سالِمٌ: سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عنْهما يقولُ: انْطَلَقَ بَعْدَ ذلكَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ وأُبَيُّ بنُ كَعْبٍ إلى النَّخْلِ الَّتي فِيها ابنُ صَيّادٍ، وهو يَخْتِلُ أنْ يَسْمَعَ مِنَ ابْنِ صَيّادٍ شيئًا قَبْلَ أنْ يَرَاهُ ابنُ صَيّادٍ، فَرَآهُ النبيُّ ﷺ وهو مُضْطَجِعٌ - يَعْنِي في قَطِيفَةٍ له فِيها رَمْزَةٌ أوْ زَمْرَةٌ - فَرَأَتْ أُمُّ ابْنِ صَيّادٍ رَسولَ اللَّهِ ﷺ، وهو يَتَّقِي بجُذُوعِ النَّخْلِ، فَقالَتْ لِابْنِ صَيّادٍ: يا صافِ - وهو اسْمُ ابْنِ صَيّادٍ - هذا مُحَمَّدٌ ﷺ، فَثارَ ابنُ صَيّادٍ، فَقالَ النبيُّ ﷺ: لو تَرَكَتْهُ بَيَّنَ. وقالَ شُعَيْبٌ في حَدِيثِهِ: فَرَفَضَهُ رَمْرَمَةٌ - أوْ زَمْزَمَةٌ - وقالَ إسْحاقُ الكَلْبِيُّ، وعُقَيْلٌ: زَمْرَمَةٌ، وقالَ مَعْمَرٌ: رَمْزَةٌ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ١٣٥٤ • [صحيح]

فنرجع ثانيةً –هذا كان استطراد– إذاً هم يريدون أن يعبثوا على مستوى الشَّرْع يغيَّروا في الشَّرْع، وعلى مستوى القَدَر، وانظر الجُهد، نحن قلنا سنستخلِص بعض المعاني الرئيسية...

كما قلنا في سورَة نوح جُهد أهل الباطِل: {وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا}، كذلِك هنا **جُهد أهل الباطِل لإفساد النَّاس**، أنه من الممكن أن يَصِل إلى السَّماء كي يستَرِق السَّمع ويأتيه شِهاب؛ بعض الرِّوايات أنه قدْ يحرِقُهُ الشِّهاب قَبْلَ أنْ يُلقي بالكَلِمَة إلى الكاهِن أو بعد أنْ يُلقي بِها، تخيَّل أصحابُه من الجِنّ رأوه وهو يحترَق، رأوا الشِّهاب و هو هابط ليحرَق الجِنِّي ، ثُمَّ بعدَ ذلِك يستَرِقون السَّمع مرَّةً أُخرى، لدرَجة أني لما أجلس لأفكِّر كيف أن الجِنّ كانوا يصعدون ليسترقوا السَّمْع وهُم يعلمون أنهم قد يحترقوا، هذه عمليَّة انتحاريَّة، كيف يفعِلون هذا؟! وقد فوجِئت بالفعل أن بعض الشُّرَّاح من المفسِّرين أو شُرَّاح الحديث ذكروه وحقيقةً لَمْ أجِد إجابَة تشفي غليلي، بعضُهُم أظُنّ ابن حَجَر قال: "هذا من تَقديرِ اللهِ لهُم، أنَّ يَنسوا" ينسى أن هذا حُرَق فيجرَّب مرَّة ثانيَة، فيُحرَق فينسى، وإن الإصابَة بالنِّسيان هذا من تقدير الله كإبليس كما هو مُقدَّر له أنَّه يبقى إلى يومِ القِيامَة وغيرِ ذلِك، والنِّسيان يُصيب الجِنّ بسبَبٍ تَكْليفيٍّ، ابن عاشور يقول: هذا أشبَه بشيء غريزي بداخِلِهم كالحيوانات ، لا يتَحكَّم فيها، كإقبال الحيوان على الفريسة وقَدْ يهلَك وقَد يسقُط في الصَّيْد وغيرَ ذلِك، فهذا شيء غريزي بداخِلِهم،

مُجرَّد هذهِ التَّعليلات تُنبِؤكَ كيفَ أن الأمرْ غَريب، كيف يكون جُهد أهل الباطِل للتَّضحيَة حتى بأرواحِهِم، يُحرَق كي يُفسِد النَّاس، وأينَ جُهد أهل الحَقّ؟! أهل الباطِل قَدْ يُحرَقونَ لإفسادِ دينِ النَّاس، ونحنُ لا نتَحمَّل بَعْض الأذَى! نسألُ اللهَ السَّلامة والعافيَة، لا نتحمَّل بعضَ الأذَى في دينِ اللهِ سُبحانَهُ وتعالى!

معركة حفظ الوحي

فالخُلاصَة: {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا}، هنا قِصَّة بدايَة الحَدَث، {فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ}؛ هنا يأتي الخِلاف،

- هَل كانت هناك شُهُب تُلقى على الجِنّ قبل البَعثَة لكِنها أصبحت كثيرة؛ بحيث يكون هناك مَنْع تامّ من الاستراق للسَّمْع بعد البَعثَة –بَعثَة النّبي صلَّى الله عليهِ وسلَّم–؟!
- أم كانَ قبلَ البَعثَة ليسَ هُناك شُهُب مُطلَقًا ثُمَّ جاءَت بعدَ البَعثَة الشُّهُب؟!

خِلاف طويل بين أهْل العِلْم، وإن كان الذي رجَّحُه كثير من أهلِ العِلم أنه كان هناك إلقاء للشُّهُب قَبْلَ البَعثَة ثُمَّ زيدَ فيها بعدَ البَعثَة، لكن ما الدَّليل أنه كان يوجد شعب وبعدها زِيد؟ وليس أنه لم يكن وبعد البعثة صار فيها شهب؟!

قالوا الدَّليل: أنه كان هناك شُهُب تُلْقَى، استدلُّوا بثلاثة أشياء:

١. بعضُهُم استدلَّ بأبيات شِعريَّة لأناس في الجاهِليَّة تَكَلَّموا واستدَلوا بقضيَّة الشُّهُب، فمعنى أن الشُّهُب ورَدِت في الشِّعر الجاهِلي أنها كانِت موجودة، رَدُّوا على هذا، الطَّائِفَة الثانيَة قالت هذا شِعْر منحول، بعضُهُم أنكَر هذا الشِّعْر،
٢. الاستدلال الثاني: النَّبي -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- في حديث كانَ يجلِس معَ الصَّحابَة فرأَى شِهاب فقال: (مَا كُنتُم تَقولونَ عَلى هَذا في الجاهِليَّة؟)[١٠]، فعلى تصحيح الحَديث هذا أن النَّبي -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- قال لهُم أنتم عندما كنتُم ترون هذا في الجاهِليَّة كنتُم تقولون ماذا؟! فقالوا هذا مَوْلِد عظيم أو مَوْتُ عَظيم، فأنكَرَ النَّبيُّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- ذلِك.
٣. فخلاصة القَوْل أنهم استدلوا بالقول الثَّالِث أنّ قول الله سُبحانَهُ وتعالى: {مُلِئَتْ}، قالوا: الملء يعني من الممكن أن يكون شيئا بسيطا ثُمَّ مُلِئ،

أيًّا كان الخِلاف، كما قلت لكم الأكثَر رَجَّح أنّه كان يوجد ثُمَّ زيدَ فيها بعد البعثة: {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا}: منَ الملائِكَة، {وَشُهُبًا}؛ تُلقيهِ الملائِكَة على من يُحاوِل استراق السَّمع.

وهنا تبدأ كما تكلَّمنا في درس معركة النَّصّ، هنا معرَكَة النَّصّ معرَكَة حِفْظ الوَحيْ، كيفَ يُحفَظ الوَحْي؟! كما تكلَّمت في درْس مَعرَكَة االنَّص، قِصَّة حِفظْ الوَحْي من خِلال سُورَة البُروج ثُمَّ سورَة الطَّارِق ثُمَّ سورَة الأعلى، من النُّزول من القُرآن الذي في اللَّوْح المحفوظ ثُمَّ النُّزول في السَّماء مِنَ الملائِكَة، ثُمَّ في صَدْر النَّبيِّ -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- وفي صُدورِ المؤمنين، فحتَّى يَصِلَ إلينا الوحي محفوظًا هناك جُهد ضَخْم بُذِل

١٠ [عن عبدالله بن عباس:] بينما رسولُ اللهِ ☐ جالسٌ في نفرٍ من أصحابِه إذ رُمِيَ بنَجْمٍ فاستنارَ فقال رسولُ اللهِ ☐ ما كنتم تقولونَ لمثل هذا في الجاهليَّةِ إذا رأيتموهُ قالوا كنا نقولُ يموتُ عظيمٌ أو يُولَدُ عظيمٌ فقال رسولُ اللهِ ☐ فإنه لا يُرْمى به لموتِ أحدٍ ولا لحياتِه ولكن ربنا تباركَ اسمهُ وتعالى إذا قضى أمرا سبّحَ حملةَ العرشِ ثم سبّحَ أهلُ السماءِ الذين يلونهُم ثم الذين يلونهُم حتى يبلغَ التسبيحُ إلى هذهِ السّماءِ ثم سألَ أهلُ السماءِ السادسةِ أهلَ السماءِ السابعةِ ماذا قال ربُّكم قال فيخبرونهُم ثم يستخبرُ أهل كل سماءٍ حتّى يبلغَ الخبرَ أهلَ السماءِ الدنيا وتخطفُ الشياطينُ السمعَ فيرمونَ فيقذفونهُ إلى أوليائِهم فما جاءوا به على وجهِهِ فهو حقّ ولكنهم يحرفونهُ ويزيدونَ
الترمذي (ت ٢٧٩)، سنن الترمذي ٣٢٢٤ • حسن صحيح • أخرجه مسلم (٢٢٢٩)، والترمذي (٣٢٢٤) واللفظ له، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٧٢) • شرح رواية أخرى

حتَّى يَصِلَ إلينا، شُهُب أحرَقَت شياطين، والملائِكَة رَصَد يحفَظون الرَّسُول، ورسول يُؤذى حتَّى يُبلِّغَ الدِّين، ومؤمنين يُقتَلون حتَّى يصِلَ إلينا الوَحي سليمًا مُحافَظًا عليْه، وبُذِلَت جُهود كثيرة، كان هناك معرَكَة ومعارِك أُقيمَت حتَّى يصِلَ إلينا الوَحْي.

{مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ}، قَبْل هذا كُنَّا نقعد، وهنا أيضاً بعضهُم استدلَّ بالآية هذه على أنه لم يكن يوجد شُهُب، وأن القُعود فيه حالَة من الاستقرار والثَّبات، كنا نقعد كما نريد.

{وَأَنَّا كُنَّا} أي: قَبلَ الحَرَس الشَّديد {كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ} والقعود فيه نوع من التّمكّن كقَوْل الشَّيْطان: {لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ}[الأعراف:١٦]، {وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ} قبل هذا، لكِن الآن: {فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ} بِمُجرَّد ما يصعد أحد لك يستَمِع الوَحْي: {يَجِدْ لَهُ} مخصوص لَهُ {شِهَابًا رَّصَدًا}، والرَّصَد تَكَرَّرت في السُّورَة {يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا}،

لما حَصَل التَّغَيُّر هذا تكلموا عن مشاعِرهُم بعد التَّغيُّر: {وَأَنَّا لَا نَدْرِي} فما الذي حَصَل بسَبَبُه؟! {أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا} يعني ما المعنى من هذا؟!

- يقول ابن عَطيَّة معناه: "لا ندري أيؤمِن النَّاس بهذا النَّبيّ فيَرْشُدوا أم يكفروا به فينزِلُ بِهِم الشَّر؟!".
- وبعْض المفسِّرين قالَ تفسير الآيَة: نحن لا نعلم إذا كانت النَّاس -بعد ما حصَل التَّغيير هذا- ستسمَع الكلام فيَرْشدون أم سيُكذِّبون فيُصيبهُم الضُّرّ؟!
- وإن كان ابن زايد قال: ليس هذا معنى الآيَة، والذي رجَّحَهُ الطَّبَري قوْل ابن زايد قال: إنَّ الجن لما راوا السّماء وهذا المشهد قالوا: السَّماء لا تُحرَس إلا لأحدِ أمرَيْن إما أن يُريدَ اللهُ -سُبحانَهُ وتعالى- أن يُنَزِّل عذابًا أو أن يُرسِلَ نبيًّا مُرشِدًا،أي أنهم لما رأوا التَّغَيُّر هذا قالوا: معنى الحَرَس الشَّديد هذا شيء من اثنين: إما عذاب سينزِل بالأرض للكُفْر الموجود فهُم جِنّ ويعرفون أنهم الذين ينشرون الفساد، أوْ أنَّ الله سيُرسِلُ نَبيًّا مُرشِدًا، فلمَّا رأوا {وجدنا السماء مُلِئَت حَرَسًا شديدً وشُهُبًا} وقبل ذلك : {كنا نقعد منها مقاعِدَ للسَّمع فمن يستَمِع الآنَ يجِد لهُ شِهابًا رَصَدًا}، لما رأوا هذا التَّغيُّر، قالوا نحن لا نعلم هل سينزِل عذاب؟! أم أن ربنا سيبعَث رسولا؟!

أحوال الجن ومشاعرهم قبل البعثة

وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾

{وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا}، {وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا}، آيَة رقَم احدى عشَر هل معناها أن الجِنّ يتكلّمون عن أنفسُهُم وأن كُلّ هذا قَبْل أن يسمعوا القُرآن؟! نحن قُلنا كي تحفَظ سُورَة الجِنّ -لأنها صعبة في الحِفظ- يجب أن تفهم؛ لحظة البِدايَة: الاستماع، تكلمّوا عن مشاعِرهُم لَحظة الاستماع، وبعد هذا تكلّموا عن أسباب شِركُهُم قبل الاستماع، انتهى؟!، يعني يعمِلون مثل ماذا؟! يرجعون كالتغذية الاسترجاعية(feedback)هكذا، يرجَعون للماضي لحظة الاستماع، وبعد هذا جاء بها من البداية: أسباب الشِّرْك واستمر يتكلّم عن الشِّرك ودروس العَقيدَة الباطِلَة التي أخذها وهكذا..

إلى أن وصل عند نقطة التَّغيُّر، يحكي من نُقطة التَّغيُّر هنا الاستماع، نقطة التَّغيُّر الأول استراق السَّمع والشُّهُب، بدأت الشُّهُب فيحكي قصة التَّغيُّر، يكمّل قِصّة التَّغيُّر والشُّهُب وبعدها قلنا من المؤكد أنه حَصَل شيء ما، فلو سنكمّل على هذا القول والسِّيناريو الذي نقوله سيكون: {وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ} أي: قبْلَ سَماعِ القُرآن، لأنه يوجد ناس قالِت هذه الآية وهم الأغلَب قالوا: {وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ} أي: قبْلَ استماعِ القُرآن؛ أيّ نحن أصلًا قبلما تأتي الشُّهُب والبَعْثة والوَحيْ ونسمع الكلام هذا كُلُّه، كان فينا جِنّ صالحون كما كان هناك ورَقَة ابن نَوْفَل و زَيْد بن عمرو بن نُفَيْل من البَشَر، كان فينا – أي في الجن – أيضاً بَعض الصَّالِحين ، والباقي لم يكونوا، وكُنَّا مُختَلِفين، كان منَّا اليَهود، ومنَّا النَّصارى، ومنَّا المشركين ومنَّا الوَثَنيين: {كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا}، كُنَّا كالبَشر، وهم يحكون قِصَّة التَّغيير الخاصة بهم يتكلّمون: {وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ} أي: قَبْلَ القُرآن.

{وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا} قِدَدًا من التَّفَرُّق، والقِدَّة القِطعَة، قَدَّت قَميصَهُ أي: قطعَتْ قميصَهُ من دُبُر كما في سورَة يوسُف. فقِدَدًا: مُتَقَطِّعين مُفترِقين لم يكونوا شيئاً واحداً.

بعْض المفسِّرين وأولئك قِلَّة قالوا: وكُنَّا بعدَ استماعِنا للوَحْي مِنَّا مَنْ كانَ صالِحًا يعني كان في قِمّة الصَّلاح، ومِنَّا مَنْ كانَ دونَ ذلِكَ في الصَّلاح، يعني أثَر القُرآن علينا فهناك فئة أصبحت صالحة ونافعة

جدًا جدًا ، وفئة أخرى بين الصلاح وما دونه، وهذا الذي يحدث أحيانًا بعد استماعِ الوَحْي، يوجد أناس تتغيَّر تمامًا، وناس تظل تعرُج و تمشي على سَطْر وتترك سَطْر، هذا لو قُلنا المقصود هنا بعد الوَحيْ... لكِن الغالِب معَ السِّياق قال: {وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ} أي: قبلَ الوَحيْ.

{وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا}، ما المعنَى المِحوَري الذي كان داخلهم قَبْلَ سماعِ الهُدى؟! يعني هناك آية قبْل آية: {وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ}، لو أننا نحن نمشي هكذا مع القِصَّة كما ذكَرِنا مشاعِرهُم، إلى استراق السَّمْع إلى أنهم وجدوا السَّماء مُلِئَت حَرَسًا شديدًا، قُلنا من المؤكد أن شيئا ما سيحدث، وقبْل هذا أصلًا كُنَّا طَرائِقَ قِدَدًا، وبعدها قالوا آية: {وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ}.

قبل لحظِة الإيمان يتكلمون عن شُعور مُعيَّن أحدث فرقا معهُم، شُعور مُعيَّن تركهم مُشركين أنهُم ظَنُّوا {أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا}، لكن كان يوجد شُعور ثان لما كان داخل بعضهم وسَيْطَر عليهم جعلهم بِمُجرَّد سماع الهُدى يؤمنوا، ما هذا الشعور؟!

{وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا}،

- الذي قال إن هذه الآية قَبْل الوَحْي قال بإحساس الجِنّ بالضَّعْف، وهذاتجده عند المشرِك... انتبه! المشرِك مُشرِك ووثَني ويُنكِر البَعْث، لكِن عندما يوضع في منتصف البَحْر يقول: يا رَبّ، المشرِك مهما كانَ في قِمَّة الشِّرْك إذا كانَ في مُنتَصَفِ البَحْر أيقنَ بِضعْفِه... فإحساس بعض الجِنّ بِضَعفِهِم وأنه مهما هرب فأين سيذهب من الله؟! لو قُلنا إن هذا قَبْل السَّماع.
- والبعض قالِ: لا، هذا الشُّعور الذي سيْطَر عليهُم لما سمعوا القُرآن، لأنه لما سمعوا القُرآن حَصَل تضارُب في المشاعِر، سنقول لإبليس ماذا؟! إبليس أرسلنا سنرجَع فماذا سنقول له؟! أم سنُسلِم وحسب؟!.. فغَلَّبوا شُعور الخَوْف من الله كي يستطيعوا الثبات أمام إبليس، ويوجد أناس قالِوا: لا، هذه المشاعِر كانِت قبل سماع القرآن.

{ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ } **هذا الإحساس لو سَيْطَر على إنسان ، أين يذهب من رَبِّنا؟! ، ذلك مما يَدفَع الإنسان للإيمان**، لو أنك تريد أن تكلِّم أحدًا مهما كان مُلحِدًا أو كانَ بعيدًا عنِ الله ، ذَكِّرهُ بِضَعفِه: أين تذهب من ربنا ؟! مثل ما يحدث الآن –موضوع الكُورونا– وخوف النَّاس والهَلَع والفَزَع من المهِم استغلال مشاعِر الضَّعْف عندَ النَّاس بتذكيرِهِم بقُدرَةِ الله –سُبحانَهُ وتعالى– ، أين تذهب من الله ؟! ؛ هناك كتاب جميل جدا قرأتُه منذ زمن كان اسمُه "لسْنا بِمَأمَنْ"، مع أن

الكِتاب قَديم ويتكلم عن المخاطِر التي تُحيط بِنا مِن كُلِّ جِهَة، استحضار هذا المشْهَد يجعَل الإنسان يخاف منَ الله –سُبحانَهُ وتعالى– {ليسَ لها من دونِ الله كاشِفَة}[النجم:٥٨]

لحظة الإيمان

{وَأَنَّا}: لحظة الهدى ، هُم يَحكون كُلّ هذا وهم مازالوا يقصون قصتهُم ، أتدري عندما تَقُص قِصَّة تائِب ، هذا الذي تَقُصّهُ الجِنّ، { وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ } سَمُّوا القُرآن "الهُدَى"، أي أن القُرآن كُلُّه هُدى، أول ما سَمِعناه {آمَنَّا بِهِ}، أخذنا القرار، ولكن كيف اخذوا القرار ؟!

ماذا سوف يفعل إبليس بك؟! لا... بل {فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا}، لا يخاف ظُلْمًا ولا عَنَتًا، كيف وإبليس سيعذبك؟!...كما كان سَحَرَة فرعون؟! وفرعون سيعذبكم؟! وقيل إنّه عذَّبَهُم بالفِعْل، وصَلَبَهُم في جُذوعِ النَّخْل، لكنهُم كانوا يُفَكِّرونَ في الآخِرَة !

الذي يسمَع الوَحيْ يفهَم أهمية قضيَّة التَّوْحيد وعظَمِة ربِّنا قضيَّة البَعْث والدَّار الآخِرَة، فإذا استقرَّت عظَمةُ الله في قلبِ إنسان وأهميَّة الدَّار الآخِرَة، فإنه يُقبِلُ على الإيمانِ بغيرِ تَرَدُّد ، يقتحِم العَقَبَة بغيرِ تَرَدُّد،

{ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا } قيلَ: ظُلْمًا، {وَلَا رَهَقًا } قيلَ: عَنَتًا،

ومِنَ المعاني الجَميلَة التي ذَكَرْها –أظُنّ– الزَّمَخْشَري قال: { فَلَا يَخَافُ بَخْسًا } أي : لا يخافُ أن يُظلَم يَوْمَ القِيامَة، ولا يخافُ عنَتًا يَوْمَ القِيامَة ، لماذا ؟ ماذا يريد الزَّمَخْشَري أن يقول ؟ لا يخافُ جزاءَ الظُّلم؛ لأنهم لم يفعلوا ظُلم، ولا يخافونَ جزاءَ الرَّهَق؛ لأنهُم لم يُرهِقوا أحدا، لم يُرهِقوا جِنِّي، بمعنى لم يُرهِقوا مخلوقًا، إذًا ماذا يريد الزَّمَخْشَري أن يقول ؟ الذي يُسلم يبتَعِد تمام البُعد عَن ظُلمِ النَّاسْ وعَن إعناتِ النَّاس ، والزَّمَخْشَري نصَّ على ذلِك، **ينبغي لِكُلِّ من آمَنَ حَقَّ الإيمان أن يبتَعِدَ عن ظُلمِ النَّاس وعَن إعناتِ النَّاسْ**

كيف لِمُؤمِنٍ يظلِم النَّاس ؟!

كيفَ لِمؤمِنٍ أن يظلِم العُلَماء ؟!!! ، ويسجِن العُلَماء ويُعنِتَهُم ويَظلِم النَّاس؟

كيفَ لهُ ذلِك ؟!!

فَلِذَلِك هنا الزَّمخشَري يقول: { فَلَا يَخَافُ بَخْسًا } لأنَّهُ لَم يبخَسِ النَّاس شيئًا {فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا }

وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾

واجبك أن تبحث عن الحق

{ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ } هذا بعد سماعِ الوَحيْ، {وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ} قِيل -أنا ذكرت الخِلاف- قبلَ سماعِ الوَحيْ، {وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ} أو بعد سماع الوَحيْ.

هناك ناس أصرّت على الاستمرار على الضَّلال { وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ } لكِن الذي أسلَم {فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا} ماذا يعني هذا؟ .

{ فَمَنْ أَسْلَمَ }أي أن الذي سوف يسمَع القُرآن ويستسلِم لله { فَأُولَٰئِكَ } »»«{تَحَرَّوْا رَشَدًا} التَّحرِّي: التَّوخِّي والتَّعمُّد والبَحْث، بمعنى يقول مثلًا: إذا أردتَ أن تُصلِّي فعليْكَ أن تتحرَّى القِبلَة، ماذا يعني تتحرَّى القِبْلَة؟ أي تبحث وتتعَب وترى وتسأل ، لذلِك بعض الفُقَهاء يقولون الذي يصلي دونما يتحرَّى القِبلَة وبعد ذلك يتضح أنها غَلَط يعيدها، أي: الواجِب عليه التَّحرِّي، حتى لو لم يستقبِل عينَ القِبلَة، فالتَّحَرِّي إنَّه يبحث ويتعَب، فمعنى { تَحَرَّوْا رَشَدًا } **هنا دليل إنّه كان هناك شُبُهات تُلقى ، وكان هناك وَاقِع إفساد ، فما الواجِب علينا ؟**

الآن حذَّرتنا في أول الدَّرْس ألا نسمع النَّاس التي تتكلَّم في الإلحاد، ولا نسمع الشُّبُهات، ولا نكون مثل الجِنّ الذين ظنوا إن إبليس لا يكذب على ربنا... يوجد من الناس من تعتقد ذلك،

يعتقد أن شياطِين الإنس الذين يسمعونهم في اليوتيوب هؤلاء لا يكذبوا، ويقولون الحَقّ، ولم يقصدوا يدلِّسوا، وعندما يقول لك إن أنت أصلَك قِرد !، هذه النَّاس لا تكذب أبدًا، و لا تدلس أبدًا.

لا، بل عادي جدا هو ممكِن يكذِب، عادي تمامًا ، وخاصَّةً لو وافَقَ مصلَحتَهُ ، **فهنا لابد في هذا الواقِع أن تبحَث ، أنت مُطالَب بأنك تَبْحَث ، مُطالَب أنك تتحرَّى وأنْ تبحَثَ عن الرُّشْد**

لذلِك قالوا: { فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا } الذي سوف يُسلِم في واقِع انتشار الفَساد والشُّبُهات هُوَ مَن كانَ يبحَث فلَنْ يُضَيِّعَهُ اللهُ –سُبحانَه وتعالى– ، الذي يتحَرَّى حتى لو ماتَ وهوَ يتحرَّى ولَم يصِل يلقَ اللهَ –سُبحانَهُ وتعالى– يقولُ يا ربِّ كنتُ أبحَثُ عنْك ، مثل زَيْد بن عمرو بنُ نُفَيْل كانَ يُسنِدُ ظَهْرَهُ إلى الكَعْبَة ويقول: "يا ربِّ لو أعلَمُ أحبَّ الوجوهِ إليكَ لعَبدتُكَ بِها"[11] ، وقالَ عنهُ النَّبيُّ –صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم– ماتَ قَبْلَ البَعثَة ولَمْ يُؤمِنْ بالنَّبيِّ –صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم– فقالَ عنهُ النَّبيُّ –صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم–: (يُبْعَثُ أُمَّة وحدَهُ)[12] لأنَّهُ فَعَلَ ما عليْه، فانتبهوا من لَفظة: { تَحَرَّوْا رَشَدًا } تشعرك مدى حالَة التَّشويش والشُّبُهات الموجودة .

الشرك ظلم عظيم

{ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ } القِسْط أو القَسْط من الشَّيء الجُزء أو النَّصيب، فقالوا معنى قَسَطَ: أخَذَ حقَّ غيرِهِ ، أي أخذ نصيبا ليس له ، قَسَطَ : أخَذَ حَقَّ غيرِهِ ، وأَقسَطَ :–الألِف التي في البداية– هذه بعض العُلماء في اللُّغَة يسمُّوها ألِف الإزالَة أو السَّلْب، بمعنى أعاد القِسْطَ لم يأخذه ؛ فقَسَطَ أخَذَ هذا النَّصيب الذي ليسَ مِن حَقِّهِ ، أَقْسَطَ أي: كانَ عادِلًا

فقالوا قَسَطَ: بمعنى جارَ وظَلَم

---

١١ [عن عبدالله بن عمر:] أنَّ النبيَّ ﷺ لَقِيَ زَيْدَ بنَ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ بأَسْفَلِ بَلْدَحٍ، قَبْلَ أنْ يَنْزِلَ على النبيِّ ﷺ الوَحْيُ، فَقُدِّمَتْ إلى النبيِّ ﷺ سُفْرَةٌ، فأبى أنْ يَأْكُلَ منها، ثُمَّ قالَ زَيْدٌ: إنِّي لَسْتُ آكُلُ ممَّا تَذْبَحُونَ على أنْصابِكُمْ، ولَا آكُلُ إلَّا ما ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عليه، وأنَّ زَيْدَ بنَ عَمْرٍو كانَ يَعِيبُ على قُرَيْشٍ ذَبائِحَهُمْ، ويقولُ: الشَّاةُ خَلَقَها اللَّهُ، وأَنْزَلَ لَها مِنَ السَّماءِ الماءَ، وأَنْبَتَ لَها مِنَ الأرْضِ، ثُمَّ تَذْبَحُونَها على غيرِ اسْمِ اللَّهِ، إنْكارًا لِذلكَ وإعْظامًا له

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٣٨٢٦ • [صحيح]

١٢ [عن عبدالله بن عمر:] لقيتُ زيدَ بنَ عمرِو بنِ نُفَيلٍ بأسفلِ بَلْدَحٍ وذلك قبل أن ينزلَ على رسولِ اللهِ ﷺ الوحيُ فقدَّم إليه سفرةً فيها لحمٌ فأبى أن يأكلَ وقال إنِّي لا آكلُ ممّا تذبحون على أنصابِكم ولا آكلُ إلّا ممّا ذُكر اسمُ اللهِ عليه وكان زيدٌ يصلِّي إلى الكعبةِ وكان رسولُ اللهِ ☐ يقولُ بعد ذلك فيه يُبعثُ أمّةً وحدَه يومَ القيامةِ

الدارقطني (ت ٣٨٥)، تاريخ دمشق ٥٠٨/١٩ • صحيح من حديث موسى بن عقبة عن سالم وهو غريب من حديث عبيد الله بن عمر عن موسى

{وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ} أي الظَّالمون الذينَ أخَذوا حقَّ اللهِ وأعطوهُ لِغيْرِه، أعْطَوْا حقَّ الله الذي كانَ ينبغي أن يُعطى لله وأعْطَوْا هذا الحَقَّ لإبليس، أعْطَوْهُ للأصنام، أعْطَوْهُ للأوْثان ، هذا ظُلْم.

{ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا } بعدما تَبيَّنَ الحَقّ في سورَة الأنعام الواضِحَة البَيِّنَة التي فيها بيِّنات واضِحات، وفيها أكثر من أربعين { قُلْ } { ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا } بعدَ هذا الوضوح { بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ } أي: يُساوون بِهِ غيْرَهُ

وهنا { وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ } بعدَ كُلِّ هذا الوضوح فالظَّالمون { فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا } يُلْقَى الإنسانُ والعِياذُ بالله. وهذا تحذير لِمَن قُرِئَت عليهِ الآيات ووُضِّحَت لهُ البَيِّنات ثُمَّ يُصِرّ على أن يَظلِمَ نَفْسَهُ وأنْ ينْسِبَ الشِّرْك إلى اللهِ –سُبحانَهُ وتعالى– الشِّرْك ظُلْم عَظيم.

النعيم فتنة للمسلمين وعذاب للكافرين

ثُمَّ يقولُ اللهُ –سُبحانَهُ وتعالى–: **{ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ }**

معنى { وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا } هنا العُلَماء اختَلَفوا من الفاعِل { اسْتَقَامُوا } ؟ ، ربنا يخاطب من ؟ ، من الذين لو { اسْتَقَامُوا } ؟ من الفاعِل؟

و{ الطَّرِيقَةِ } ماذا تعني كلمِة الطَّرِيقَةِ ؟

و{ مَّاءً غَدَقًا } –معروفة – قالوا الخَيْرِ العَظيم، والماء يأتي مثل الأثَر المروي عن عُمَر بن الخَطَّاب "حينما يوجَد الماء يوجَد المال، وإذا وُجِدَ المال وُجِدَتْ الفِتنَة" ، وما معنى{ لِّنَفْتِنَهُمْ } ؟

إذا من الفاعِل { اسْتَقَامُوا }؟ وما هي {الطَّرِيقَةِ}؟ وما معنى { لِّنَفْتِنَهُمْ }؟

عموم العُلَماء منذ تفسير الواحدي "البسيط"إلى المتأخِّرين قالوا المسألَة فيها قَوْلين...فقط الإمام الطَّبَري ذكر ثلاثة أقوال، وسأذكر الفَرْق بين الذي ذَكَرُه وغيره، وهذا-واللهُ أعلَى وأعلَم -مِنْ دِقَّة فِهْم الإمام الطَّبَري.

- القَوْل الأول: {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ} قالوا: استقاموا: الفاعِل هنا أي: أهْلِ الحَقّ، الذين هُم {فَمَنْ أَسْلَمَ}، ربنا قال: {فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا} {وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا} هَلْ ربنا يقول: وألو استقامَ مَنْ أسلَمَ هؤلاء الذينَ تَحَرَّوْا رَشَدًا، فألو استقاموا على الطَّرِيقَة: أي طريقَة الحَقّ، لأسقيناهُم ماءً غَدَقًا: فتحنا عليهِم بركات مِنَ السَّماءِ والأرض لِنَفتِنَهُم فيه لنَنْظُرَ كيفَ يَشْكرون ؟

إذا القَوْل الأوّل {اسْتَقَامُوا} فاعلها الذين أسلَموا وتَحَرَّوْا رَشَدًا، و{ الطَّرِيقَةِ } المقصود بها طريقة الحَقّ، و{ مَّاءً غَدَقًا } المقصِد منُّه البَرَكات، ويكون معنى هذهِ الآيَة بمعنى قولِ اللهِ -سُبحانَهُ وتعالى- في سورَة الأعراف: { وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ }[الأعراف:٩٦] و بمعنى آية المائِدَة: { لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم }[المائدة:٦٦] ويكون المعنى هنا: { لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ } أي لِنَنظُرَ كَيْفَ يَشْكُرون ، هل سيشكرون ربِّنا أم لا؟

إذا القَوْل الأول فاعِل {اسْتَقَامُوا} هم أَهل الحَقّ، {الطَّرِيقَةِ} طريقَة الحَقّ، الطريقَة المستَقيمَة، وابن عطيَّة يَقول: هذا أشهَرِ استعمال -لكلمة الطَّريقة- ، أي أن استعمال الطريقة لطريق الباطِل" استعمال قلِقْ"، بمعنى نستعملها في أهل الحَقّ هذا هو الأشهر.

- القول الثاني :-وهناك الذين قالِوا لا، ليس هذا معنى الآيَة حتى تكمِلة الآيَة: { وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا } معنى الآيَة: وأَنْ لو استقامَ القاسِطونَ على طريقِة الفساد، بمعنى لو ظلوا مُصرِّين على الفَساد ماذا سيحدث؟، أنت متصور ماذا سيكون المعنى ؟ لعذَّبناهُم مثلا؟ لا، وألو: أيْ ولو ثَبَتَ القاسِطونَ المجرِمونَ الظَّالِمونْ لو ثَبَتوا على طريقِة الظُّلْم لفَتَحْنا عليهِم أبواب الخيرات، وفتحنا عليهِم أبواب كُلّ شيْء، لماذا يا ربّ تُعطيهِم مِنَ النَّعيم؟ لماذا يا ربّ النَّاس تَكْفُر وتُلْحِد وتُعطيهِم مِنَ النَّعيم؟ كقوله تعالى{وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ (٣٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا }[الوخرف:٣٣-٣٥] سورة الزُّخرُفْ - قالوا هذه الآيَة شبيهَة بهذهِ الآيَة- هذا القَوْل الثاني .

إذا فالقول الثاني لو ثَبَتَ القاسِطونَ الظّالِمونَ على طريقتِهِم مِنَ الظُّلْمِ لفتَحنا عليهِم مِنَ النَّعيم، لماذا يا رب؟ { لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ } حتَّى يصِلوا إلى جَهَنَّمَ ، لأنَّهُم أعرَضوا بسبَبِ الماءِ الغَدَق، أعرَضُوا بسبَبِ الدُّنيا، أعرَضُوا بسبَبِ الفِتنَة بعطاء الله{ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ } بسبَبِ الماءِ الغَدَقْ، {وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا} عذابًا شاقًّا ومستمر في التصاعَد،

يتصاعَدُني: يَشِقُّ عليَّ، و{ عَذَابًا صَعَدًا } شاقّ مُتَزايِد، كما أنَّهُم كانَتْ الفِتنَة والعطاء يزداد عليهِم ويزدادوا إعراضًا ،يكون كذلك العَذاب مُتَزايِدًا عليهِم، القوْل الثَّاني تشعر أنه فعلًا أشبَه معَ السِّياق لولا أن كلمة الطَّريقَة التي استعملوها هنا في استعمال لطريقَة الباطِلْ.

هناك قَوْل ثالِث مَرْوي عَن الضَّحَّاك

القَوْل الأول مَروي عن مُجاهِد وابن عبَّاس وذَكَرُه الطَّبَري ، إنه قال:لو استقامَ أهلُ الحَقّ على الطَّريقَة

القَوْل الثَّاني مَرْوي عن بعض المتَأخرين

- القَوْل الثَّالِث :- وألو استقامَ القاسِطونَ على الطَّريقةِ الحَقِّ ، إذًا فقد جعل الطريقة: هنا بمعنى الحَقّ، وجعل الفاعِل القاسِطون وليس المسلِمون، أي وألو استقام القاسِطون: بمعنى لو تابوا لربنا ورجعوا ، لكن ربنا –سبحانَهُ وتعالى– يعلَم مِن داخِلِهِم أنَّهُم على ظُلْم، وأن لو استقاموا على الطَّريقةِ الحَقِّ لفتحنا عليهِم مِنَ الفِتنَة لِنُعيدَهُم إلى الكُفرِ والضَّلال بِما كُتِبَ عليهِم مِنَ الضَّلال الذي يستحقّونَهُ، {لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} أي: لِنُعيدَهُم إلى الشَّقاء، {وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ} بسبَبِ فتنَتِهِ بالدُّنيا ..

إذا ماذا يقول لنا ربنا هنا في هذه الآيَة؟! لو أخذنا القَوْل الثَّالِث، أن هناك أناس يمكِن أن تسمَع الوحي فتتأثَّر ويحاوِل أن يثبت

فكيف ينتكس؟! ما الذي يعيده ثانية؟! »»»فتنَةُ الدُّنيا!

النَّاس عندما تسمع الحق تنقسم :-

- أناس أول ما تسمع الحَقّ تُعرِض.
- وأناس أول ما تسمع الحَقّ تُؤمِن وتثبت.
- وأناس بعد ما تسمَع الحَقّ تُؤمِن ثم ترتدّ.

إذًا الناس ينقسِمون إلى طوائف كثيرة بعد سماعهِم للوَحيْ.

{ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا (١٦) لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ}، معنى {لِّنَفْتِنَهُمْ} تختَلِف على حسَب، وأنا ذَكَرْت الثلاثة أقوال.

هَلْ {لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} ليَنظُرَ كيفَ يشكرون؟! أم {لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} ليستَمِرُّوا في فِتنَتِهم؟! أم {لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ} ليَعودوا إلى الشَّقاء -القَوْل الثَّالِث- وكُلّ واحِد رجَّح قَوْل.

{لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ} بسبَبِ الفِتْنَة، { يَسْلُكْهُ } الله -سُبحانَهُ وتعالى- الفاعِل، {يَسْلُكْهُ} الله، الهاء هنا للمَفعول أي: هذا الذي أعرَض، و {عَذَابًا صَعَدًا}؛ مُتَزايِدًا شاقًّا.

بداية الإصلاح والتوحيد من المساجد

ثُمَّ هِنا قالوا من بداية الآية: { وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ } ليس هناك خِلاف في أن هذا ليس من قَوْل الجِنّ، كُل الذي سبق يقول لك هل هذا من قَوْل الجِنّ أم مِنْ قَوْل كذا؟! أما من قوله: {وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا} هذا مِنْ قَوْلِ الله -سُبحانَهُ وتعالى-.

{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ}: قِصَّة الجِنّ انتهت، وبدأ الخِطاب يتَّجِه للنَّبي -صلَّى الله عليهِ وسلَّم- والتَّعريض بالمشرِكين وبالواقِع، وإسقاط لقصَّة حياة الجِنّ على واقِع قُرَيْش في مكَّة معَ النَّبي -صلَّى الله عليهِ وسلَّم-.

{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ}، هنا بداية الإصلاح مِنَ المسجِد، وبداية الإصلاح وبدايَة نَشْر التَّوْحيد، مثل بداية قصَّة الجِنّ كانت بدايتها أن إبليس يُعطي دروس عقيدَة فاسِدَة، إذا بداية الإصلاح دُروس العَقيدَة الصَّحيحَة مِنَ الوَحيْ ، الإصلاح من أين؟! **مِن تَعريفِ النَّاسِ بالوَحيْ في المساجِد**، وهذهِ المساجِد

يُذكَرُ فيها الله و كلامُ الله وليس كلام البَشَر، و لا نذهب للمَسجِد كي نعظِّم فُلان، ونتكلّم عن الرَّئيس فُلان، ونتكلّم عن المِلك فُلان، لا لا، المساجِد لله.

والمقصِد مِنَ الآيَة قِيل: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا}،

- قيل: التَّعريض بالمشرِكين، والأصنام الموجودَة عند الكَعبَة.
- وقيل : {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ}؛ كما أنَّ النَّصارى يُشرِكونَ بالله في كنائسِهِم فلا تَفعَلوا مِثلَهُم، و هنا متَناسبة مع أول السُّورَة: {مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا}.

{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ} المساجِد هنا لو قُلنا أنها بمعنى المِسجِد، وقيل المساجِد مُفردها مَسجَدْ.

هل مساجِد مُفرَدها المكان الذي يُصلَّى فيه؟!

أم الأعضاء التي يَسجُد عليها الإنسان؟!

فلو قُلنا الأعضاء إذا معنى الآيَة: لا تَسجُدوا إلا لله، لا تسجُدوا لِقَبْرٍ ولا تَسجُدوا لِصَنَمْ، ولا تسجدوا لِجِنٍّ، ولا تستعيذوا بغيرِهِ، {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ} بمعنى أعضاء السُّجود لا تكونُ إلا خالِصَةً لله، وتُحَرَّمُ النَّار على هذهِ الأعضاء إذا سَجَدَت لله فيما يُروَى مِنَ الآثار.

{وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} إذًا النَّبي -صلَّى الله عليهِ وسلَّم- ثَابِت على المبادئ، ثابِت على الوَحيْ، يدعوا الله -سُبحانَهُ وتعالى- ولا يَلتَفِت إلى غَيْرِهِ، {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} فقامَ النَّبيُّ -صلَّى الله عليهِ وسلَّمَ- مُطَبِّقًا لِهذهِ الآيَة، يدعو الله وحدَهُ ولا يَلتَفِت إلى غيرِه، انظر سُرعة التَّطبيق!

وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾

مقام العبودية أشرف مقام

أيضًا مِنَ المَعاني المبثوثَة في سورَةِ الجِنّ سُرعَة التَّطبيق، { يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ }، {فَآمَنَّا}، {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} سريعًا قامَ النَّبيُّ -صلَّى الله عليهِ وسلَّم- {وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ}، انظر التَّعبيرات القُرآنيَّة هنا قُم= قومة.. كما قُلنا الثَّلاثة سُوَر عن الدَّعوَة: نوح والجِنّ والمدثِّر{ قُمْ فَأَنْذِرْ }،{وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ} لم يقل هنا الرَّسول، هَل هنا تواضُع مِنَ النَّبي -صلَّى الله عليهِ وسلَّم أم هذا أشرَف مقام ؟! **مقام الدَّعوَة هو مقامُ العُبوديَّة؛ فاكتِمالُ العبودية يكونُ بالعِبادةِ والدَّعوَة، وشَرَف العُبوديَّة أن تَدعُوَ إلى الله سُبحانَهُ وتعالى.**

{وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ}، أي يدعو الله وحدَهُ -سُبحانَهُ وتعالى- مثل الآيَة التي قَبْلَها: {فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} فقامَ النَّبيُّ -صلَّى الل عليهِ وسلَّم- ليطبِّق هذِهِ الآيَة.

رد الفعل للدعوة

{وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ} ماذا حَدث لما النَّبي -صلَّى الله عليهِ وسلَّم- قامَ يدعو الله؟! {كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا}

من فاعِل {كَادُوا}؟! من هؤلاء؟!و ما معنى {لِبَدًا}؟!

قالوا {لِبَدًا}: من التَّلَبُّد والتَّجَمُّع في مجموعات، ولبدة الأسَد الشَّعر الكَثيف المتَجَمِّع، بَل بعضُهُم قال إن اللبد الشَّعر الذي يَتجَمَّع أو تجمُّع، هنا تَجَمُّع وتَكالُب تعني في الرِّوايات كادَ يَرْكَبُ بعضُهُم بَعْضًا، ما هذا التَّجَمُّع؟!ماذا حدث؟! يوجد قَوْلين أو ثلاثة أقوال:

{كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} قَوْل قتادَة وهذا حقيقةً الذي رجَّحَهُ الطَّبَري وفعلًا يتناسب معَ السِّياق، أيْ: لما قامَ النَّبيُّ -صلَّى الله عليهِ وسلَّم- بدعوَةِ الله وحدَهُ -سُبحانَهُ وتعالى- ، قامَت عليهِ الجِنُّ

والإنس يُريدونَ أن يُطفِئوا نورَ الله -بتعبير قتادَة-، لم يريدوا أن يسمَعوا التَّوْحيد : {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ}[الزمر:٤٥].

الذي لا يحب البَعْث، لا يريد أن يلتَزِم بتكاليف، أول ما تقول له: لا إلهَ إلا الله، يشمئز؛ لأنه يعرف تَبِعاتِها،كما قال مشركو قريش "لَوْ كانَتْ كلِمَةً لقُلناها كما قالَ هؤلاء"

فالمعنى الأول:

ولما قامَ النَّبيُّ -صلَّى الله عليهِ وسلَّم- استجابةً لأمرِ الله في الآيَة التي قبلَها، وقامَ يدعو الله وحدَهُ في الكَعبَة وترَكَ كُلَّ هذهِ الأصنام، وأعرَضَ عنها.

-لأن {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ}

قيل: المقصِد الرَّئيس هو المسجِد الحرام والمساجِدُ لهُ تَبَع{وأن الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ} وخاصة المسجد الحرام{فَلَا تَدْعُواْ مَعَ اللَّهِ أَحَدًا}

فقامَ النَّبيُّ -صلَّى الله عليهِ وسلَّمَ- مطبِّقًا لهذهِ الآيَة في المسجِدِ الحرام، يدعو الله وحدَهُ ولا يدعو غيرهُ، مُعرِض عنِ الأصنام، فقامَ عليهِ الجِنُّ والإنس، وإبليس يبعث السَّرايا، ويبعث الجواسيس، والمشركون يريدون هدمَ دعوة النَّبيِّ -صلَّى الله عليهِ وسلَّم-،

{كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} يتَكالبون عليه، فمعنى القول هنا: إشارَةً إلى ما لاقاهُ النَّبيُّ -صلَّى الله عليهِ وسلَّمَ- مِنْ عَنَتٍ، وإعراضٍ، وجُهدٍ مِن أهلِ الباطِل؛ لهَدْمِ الدَّعوَة.

القَوْل الثَّاني:

عَكْس هذا -سُبحانَ الله- أنه لما قامَ النَّبيُّ -صلَّى الله عليهِ وسلَّمَ- يدعو إلى الله، قامَ يُصَلِّي كما حصل في صلاةِ الفَجْر، وما حدث من إعرَاضَ عنهُ المشرِكون {كَادُوا} الفاعِل هنا: الجِنّ{يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} أي يُريدونَ أن يستَمِعوا إلى الوَحيْ، يركَبُ بَعضُهُم بعضًا في استِماعِ الوَحيْ، الجِنّ كانوا يتقاتلون كي يستطيعوا السماع، أتعلم أنت عندما يكون هناك درس، والناسُ كُثر، ومن الزحام يجلسون فوق

بعضهم البعض؛ ليقتربوا فيسمعوا الدرس، هذا تمامًا ما حدث مع الجنِّ ليسمعوا القرآن، **لَهْفة الجِنّ لسماعِ الوَحيْ!**

فالآيَة –سُبحانَ الله– القَوْلان فيها:

شِدّة إعراض الإنْس عَنْ سماعِ الوَحيْ، أوشِدّة إقبالِ بعضِ الجِنِّ لسماعِ الوَحيْ، وإن شاءَ الله تحتَمِل الاثنين، وهي سُورَة عَجيبَة، فيها نوع مِن التَّطابُق.

وهناك قَوْل ثالِث: ذكر أنَّ الجِنّ يَتَعجَّبون.

{لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ } أي: النَّبيُّ –صلَّى الله عليهِ وسلَّم–

{يَدْعُوهُ} أيْ: يُصلِّي

{كَادُوا} أيْ: الصَّحابَة

{يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} أي: في طاعَتِهِ، فالصَّحابَة كانوا لا يُؤخِّرونَ أمرًا للنَّبيِّ –صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم–

إذًا..تحدث ثلاثة أمور حينَما قامَ النَّبيُّ –صلَّى الله عليهِ وسلَّم– للدَّعوَة:–

- قَيَّضَ الله لهُ أتباعًا {يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا} وهم الصَّحابَة، يسمَعونَ لهُ، ويُطيعونه هذا قَوْل.
- القَوْل الثَّاني: ثُمَّ أعرَضَ المشرِكونَ وأرادوا أن يَهدِموا الدَّعوَة،
- ثُمَّ سخَّرَ الله لهُ مخلوقات غَيْبِيَّة مِنَ الجِنّ تسمَع الوَحيْ،

فيمكن لهذه الأشياء الثلاثة أن تحدث للدَّاعيَة، أو أحَدْ هذهِ الأشياء.

قلنا القَوْل الذي رجَّحه الطَّبَري: قَوْل قتادَة، وهذا الذي أظنُّه –والله أعلَم– الأنسَب معَ السِّياق، وهو إعراض الإنس، إذ يريدون أن يُطفِئوا نورَ الله، فلمَّا حاولوا أن يُطفِئوا نورَ الله، وهدَّدوا النَّبي –صلَّى

اللهعليهِ وسلَّم- بأن يترُك التَّوْحيد، والدَّعوَة، فقالَ النَّبيُّ -صلَّى الله عليهِ وسلَّم- {قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا}، لَنْ يُؤثِّرَ فيَّ هذا التَّجَمُّع!

مِنَ اللطائِف القُرآنيَّة لمن يريد أن يرجع لها في كتاب: التَّفسير القُرآني للقُرآن، لعَبد الكريم الخَطيب، ذكَر أربَع لطائِف لتشبيه تَجَمُّع المشركين لهدْمِ الباطِل بكلمة {لِبَدًا}

وقال {لِبَدًا} هذه: تَجَمُّع شَعْر، وهذا الشَّعْر سَهْل الانتشار، وغُثاء كالسَّيْل، قام بِبعض التَّشبيهات الجَميلَة -لمن يريد الرجوع لها- .

لماذا شبَّهَ الله سُبحانَهُ وتعالى -على قَوْل قتادَة- تَجَمُّع المشركين لِهَدْم الدَّعوَة، وإطفاءِ نورِ الله، ب{لِبَدًا}؟!

فالنَّبي -صلَّى الله عليهِ وسلَّم- واجَهَ هذهِ الدَّعوَة، واجَهَ هذا الباطِل، واجَهَ هذا التَّجَمُّع مِنَ الباطِل، ووقفَ بِمُفرَدِهِ وقال: {إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا}، سأستَمِرُّ في الدَّعوَة إلى الله.

{اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ}[هود:١٢١] هاتوا آخِر ما عندكم، وماذا عنك؟!

{إِنَّا عَامِلُونَ} وأنا مُستَمِرٌّ في الدَّعوَة إلى الله،

النفع والضر بيد الله تعالى

{إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا}، {قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا}

مهما حاولتم معي، فأنا من الأساس لا أملِكُ لِنَفسي ولا لَكُم شَيئًا، {لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا}.

بعض العُلَماء هنا أشار إلى لَطيفَة، لم يقل"لا أملِكُ لَكُم غَيًّا ولا رَشَدًا...ولم يقل"لا أملِكُ لَكُم ضَرًّا ولا نَفعًا"

عَكس الضَّرّ النَّفْع، وعكْس الرَّشَد الغَيّ، فقالوا **وكأنَّ الضَّرّ هنا النَّتيجَة التي ستحدث مِنْ الغَيّ، فأتى بمآل الغيّ**؛ {لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا}؛ لا أملِكُ لكُم أنْ أُضِلَّكُم، فتَصِلونَ إلى الضُّر، ولا أملِكُ لَكُم رَشَدًا، هذا بيدِ الله -سُبحانَهُ وتعالى-

إذًا {لا أملِكُ} تعني أمرًا من اثنين:

- لا أملِكُ أن أهدِيَكُم، أو أُضِلَّكم.
- أو لا أملِكُ أن أضُرَّكُم، أو أنفَعَكُم.

فكُلُّ هذا النَّفع، والضُّرّ، والهِدايَة بيدِ الله -سُبحانَهُ وتعالى-، والإضلال بيدِ الله -سُبحانَهُ وتعالى- وحده.

الخوف من الله من مثبتات الداعية

قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ۚ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٣﴾

فيقول لهُم: {قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ}

هُم أتوا ليُخوِّفوه، يقولون لهُ اترُك التَّوْحيد، انظروا هنا، وهذه نُقطَة مُهِمَّة-نسأل الله أن يثبِّتنا جميعًا ولا يَفتِنّا-، **فالدَّاعِيَّة عندما يتعرَّض لِضَغْط، لا بدَّ أن يتذكر شيئًا يثبِّتُه**، فالنّبي -صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم- يقول لهم: كيف لي أن أستمع لكلامكم؟! مَن سيمنعني من عذاب الله؟!

مِنْ أكثر الأشياء التي تُثبِّت الدَّاعيَة الخَوْفُ مِنَ الله، مثل ما جاء في نفس السُّورَة، أكثَر الأمور التي تسبَّبت في إسلامِ الجِنّ أنَّهُم ظَنُّوا أن لن يُعجِزوا الله هَرَبًا، فهو هنا يقول لهم:

مَن سيمنعني مِن الله؟ مَن؟!

مَن الذي سيمنع عني نزول عذاب الله؟!

مثل ما قال سيدنا نوح من قبل ذلك في القرآن: {إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ}، مَن سيمنع عني إذا أنا استمعت لكلامكم؟!!

حسنًا.. أنتم لن تستطيعوا منعي، إذًا... كيف لي أن أتصرف؟!

أنا أيضًا لن أستطيع التصرف وحدي!! {وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا}، بمعنى أنكم لن تستطيعوا منع عذاب الله عني، إن أنا أعرَضت عن الدَّعوَة، أنتم تقولونَ لي اترُك تبليغَ دين الله -سُبحانَهُ وتعالى-

وأنا أقول لكُم: {لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ}،

وبالنسبة لنفسي: {وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا} أيْ: ملجأً، لَنْ أجِدَ مَخرَجًا..

والشيء الوحيد الذي سيحفَظني مِن عذاب الله: {إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ}

أهمية إبلاغ الدين

مثلما يقول القُرطُبي: (فإنَّ فيهِ الأمان والسَّلامَة)، **الشيء الوحيد الذي يحفَظ الدَّاعيَة أن يُبلِّغ دينَ الله**، عَكْس ما يعتقدُ الناس، بمعنى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ} [المائدة:٦٧]

العِصمَة جاءَت مع {بَلِّغْ}، فالعِصمَة معَ التَّبليغ.

ومِنَ المعاني المِحوَريَّة في سورَةِ الجِن: أهميَّة إبلاغ الدِّين، تبليغِ الدِّين مهما حصَلَ مِن إعراض، وتهديد، وتجَمُّع {لِبَدًا}، ورَهَق، وعنت، وجواسيس،لكن لا بُدَّ مِن تَبليغِ الدِّين، أريدك أن تجمع جُهد أهل الباطِل: عمليات انتحاريَّة، شُهُب تحرقهُم، و لا فائدة!!

{فَزَادُوهُمْ رَهَقًا}: إعنات للإنْس، إرسال الجواسيس -كُلُّ هذا-، ودُروس يقولونَها على الله فيها كذِبًا، كُلُّ هذه دروس عَقَديَّة في الباطِل، ورغم ذلك لا بُدَّ أن تُبَلِغَ دينَ الله - سُبحانَهُ وتعالى-، {إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا (٢٢) إِلَّا بَلَاغًا} هذا على قَوْل أنَّ الاستثناء مُتَعلِّق بـ{مُلْتَحَدًا}..

هناك قول ثانٍ -أنا لا أميلُ إليْهِ- وهوَ قَوْلٌ مشهور، سيكون معنى آيَة: {إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا}: أنها جُملَة اعتراضيَّة،

وبعد ذلك معنى: {إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ} لا أستطيع لكم ضرًّا، كُلِّ الذي أملِكُهُ لكُم أنْ أُبَلِّغَ لكُمُ الدِّين.

وأنا أمْيَل إلى القَوْل الأول، وهو أنَّ معنى الآيَة:

لَنْ يحفَظَني مِنَ الله -سُبحانَهُ وتعالى- إلَّا أنْ أُبَلِّغَ هذا الدِّين.

{إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ} ليس ورِسالَتِه، بل{وَرِسَالَاتِهِ}، في قراءتنا {وَرِسَالَاتِهِ}،كُلّ آيَة رِسالَة في حدِّ ذاتِها للبَشريَّة! لا بُدَّ أن أُوصِّلَها كما هيَ، وإنْ أعرَضتُ عن ذلِك أخافُ مِنَ الله{وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}،

استَمَرُّوا في الإعراض..

حسنًا.. هل أَثَّر فيهُم هذا الكلام؟! أبدًا.. لَم يُؤثِّر فيهِم.!!

هل الكلام في التَّوْحيد أثَّر فيهُم؟! لم يُؤثِّر فيهُم.!!

استَمرُّوا على الكفر، واستَمرُّوا في طلَبِ النَّبي -صلَّى الله عليهِ وسلَّم- أنْ يَكُفَّ عَنْ تَبليغ الدّين، واستَمَرُّوا في تهديدِ النَّبي -صلَّى الله عليهِ وسلَّم- والمسلمين، واستمروا في غيّهم!

حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

{حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ}، شيء من اثنين:

- إما ما يُوعَدون من عذابِ الدُّنيا، وقيل هذا حدَثَ في غَزوَةِ بَدر،
- أو ما يُوعَدونَ يوْمَ القِيامَة، وهذا هُو الأشهَر .

{حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا}

سيرون يوم القِيامَة، أو في عذاب بَدْر، انتصار المسلمين، وتمكينِ الدِّين، {مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا}لن ينصُرهُم أحَدْ، {وَأَقَلُّ عَدَدًا}..

لو قُلْنا سيعلَمونَ يومَ القِيامَة {حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ} يوْمَ القِيامَة، فكيف إذًا أقَلُّ عددًا مع أنَّ أهل النَّار هم أكثر مِنْ أهل الجَنَّة؟!

فهنا بعض المفسّرين يقول: {وَأَقَلُّ عَدَدًا} هم أقلُّ عددًا؛ لأن المسلمين معهُم الملائكَة، وقيل: المسلمون معهُم الحُور العِين، والخَدَم، وغيرهم، فالجنَّة مليئَة بالحُور العِين، والمخلوقات.

الله تعالى هو المنفرد بالغيب

فالنَّبي –صلَّى الله عليهِ وسلَّم– يقول لهُم بَعدْ ما هدّدهُم: {قُلْ إِنْ أَدْرِي}.

لا أدري، وهنا قمّة العُبوديَّة، أنا مُستَمِرّ في الدَّعوَة، لا أدري ما الذي سيحدث مستقبلًا!

{قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا}

لا أدري ماذا سيحدث!

{عَالِمُ الْغَيْبِ} هُوَ وحدَهُ -سُبحانَه وتعالى- {فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا}، هو المنفرِد بالغَيْب، لا يعلَمُهُ إلا هُوَ -سُبحانَهُ وتعالى- إلا بعض أُمور يُطلِعُها لِمَن يشاءُ مِنْ خَلْقِه؛ لِحِكمَةٍ لا يعلَمُها إلا هُوَ: {إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ}.

إذا قُلنا هنا أنَّ الله -سُبحانَهُ وتعالى- يُخبِرُ الملائِكَةَ بالغَيْب؛ لِتقوم الملائِكَة بتدبيرِ الأمور. إذًا... {إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ} تعني: مِنْ مَلَك، أو المقصِد هنا بالغَيْب هو الرِّسالَة التي يُبلِّغها الرَّسول، إذًا.. المقصود بها الرُّسُل الذين هم بَشَرْ.

أهمية تبليغ الرسالة

انتبهوا معي كي نختم، هناك ضمائِر كثيرة فيها خِلاف،

فمثلا في: {فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا} مَن فاعِل {يَسْلُكُ}؟! قالوا: الله -سُبحانَهُ وتعالى-.

بمعنى أنَّ الله يَجعَل {مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا} رَصَدًا قِيلَ: حَرَسًا، يترَصَّد: يمنَع.

مِن بيْنِ يديْ مَن؟!

-قِيل: مِن بَيْنِ يَدَيْ الرَّسول البَشَرِي الذي يُبَلِّغ الرِّسالَة، فربنا -سُبحانَهُ وتعالى- يحفظُهُ بملائِكَة؛ حتَّى يستَطيعَ أن يُبَلِّغَ الدِّين.

حقيقةً المسألة فيها أقوال كثيرة؛ وحتى لا يحدث لبس فإن القَوْل الأشهَر:

كي نسير مع السياق، دعونا نأخذ قولًا واحدًا للنهاية،

{فَإِنَّهُ} أي الله -سُبحانَهُ وتعالى-

{يَسْلُكُ} الفاعِل: الله -سُبحانَهُ وتعالى-

{مِن بَيْنِ يَدَيْهِ} الهاء هنا عائِدَة على الرَّسول، من بَيْنِ يَدَيْ الرَّسول {وَمِنْ خَلْفِهِ} ومِنْ خلفِ الرَّسول.

{رَصَدًا} أيْ: ملائِكَة حَرَسْ.

{لِّيَعْلَمَ}: الله

{لِّيَعْلَمَ} هذه فيها سبعةٌ أو ثمانِ أقْوال، أكثر مَن أطال في الأقوال هنا: القُرطُبي، والواحِدي،

{أَن قَدْ أَبْلَغُوا} أيْ: لِيَعلَمَ الله -سُبحانَهُ وتعالى- عِلمًا يترَتَّب عليْهِ الثَّواب والعِقاب، يَظهَر في علمِ النَّاس،لأن علم الله من الأزل.

{لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رسالات ربهم} أيْ: الرُّسُل البَشَرْ،

والله -سُبحانَهُ وتعالى-: {وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا} إذًا سيكون معنى الآيَة إذا أخذنا بأنَّ كل الأفعال لربِّنا:

أن الله -سُبحانَهُ وتعالى- لِأهميَّة قضيَّة تبليغ الرِّسالَة، يحفَظْ الوَحيْ لحظَة النُّزول مِنَ الجِنّ، ويحفَظ الوَحيْ لحظة نُزول المَلَكْ، فإنَّ أي مُحاولَة للجِنّ لاستراق السَّمْع يُلقي عليه الشُّهُب، ويُحفَظ الوَحيْ حينَما ينزِل للرَّسول مع جِبريل، ويحفَظ الوَحيْ أثناء التَّبليغ بملائِكَة تحفَظ النَّبيَّ -صلَّى الله عليهِ وسلَّم-؛ حتى لا يَتَشَبَّهَ الشَّيْطان بالنَّبي -صلَّى الله عليهِ وسلَّم- أو أن يُقَلِّد صوْتَه حتَّى لا تحدُث أي شُبهَة، ولا أيِّ لَبْس، ولا أيِّ تَدْليس في تَبليغ الوَحيْ، تَظَل عَمَلِيَّة صافِيَة تمامًا، كنُزولِ اللبَنِ مِنْ بينِ فَرثٍ ودَمٍ، بلاغ الوحي في قِمَّة الصَّفاءْ؛ حتَّى يَصِل الذِّكْر للنَّاس محفوظًا، ويستَقِرّ في قُلوبِ المؤمنين.

.

إذًا الله -سُبحانَهُ وتعالى- {يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا} ليصل الوحي،

لِّيَعْلَمَ: أي الله -سبحانه وتعالى-

{أَن قَدْ أَبْلَغُوا} أيْ: الرُّسُل.

{رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ} فهو يَعلَمْ ما قامَ بهِ الرُّسُل.

وإذا كانت هذه الآيَة فيها نوع تَهديد، فهيَ لَيْسَت للرُّسُل.

{وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ} هذا تهديد لِوَرَثَة الرُّسُل؛ هل سنُبَلِّغ كما بَلَّغوا أم لا؟!

القَوْل الثَّاني:

{إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ} فإنَّ الله -سُبحانَهُ وتعالى- يُعلِّمهُ بعض الغَيْب، ومِنَ الوَحيْ؛ لِيُبَلِّغَهُ للنَّاس.

والله- وتعالى- يَحفَظ الوَحيْ أثناءَ النُّزول، أثناء نُزول الملائِكَة: {فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ} هذا هو الغَيْب، هذا الوَحيْ، {رَصَدًا} ملائكَة تَحفَظ الوَحيْ وهو نازِل، {لِّيَعْلَمَ} قُلنا {لِّيَعْلَمَ} القَوْل الأول: الفاعِل الله -سُبحانَهُ وتعالى- والعجيب أنَّ هذا القول على شُهرَتِهِ، واختيار كثير مِنَ المتأخِّرين له، ومال الإمام الوَاحِدي إليه، واختارُه ابنُ قُتيبَة، والزَّجَّاج، لكِن الغَريب أنَّ الطَّبَري لَمْ يذكُرهُ، والأشهَر الذي ذَكَرهُ الطَّبَري {لِّيَعْلَمَ} أيْ: النَّبي -صلَّى الله عليهِ وسلَّم- وبالتَّالي ورَثَة النَّبيِّ -صلَّى الله عليهِ وسلَّم- {أَن قَدْ أَبْلَغُوا}، مَن الذين {أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ}؟! قِيل: الرُّسُل السَّابِقَة، كأنَّ ربنا يقول للنَّبي -صلَّى الله عليهِ وسلَّم-: اطمئنّ فقَدْ بلَّغَ الرُّسُلُ مِنْ قَبْلِك، ولا بُدَّ أنْ تسيرَ على طريقَتِهِم، وأن تُبَلِّغَ أيضًا دينَ الله، فمثلما كان ربنا -سُبحانَهُ وتعالى- يقُصّ على النَّبي -صلَّى الله عليهِ وسلَّم- أنباء مَن قَدْ سَبَقْ مِنَ الرُّسُل؛ لِيُثَبِّتَ فؤادُه مَثَلًا، فيقول لهُ اثبُت كما ثَبَتوا، وبلِّغ كما بَلَّغوا، أو لِيَعلَمَ مُحَمَّد -صلَّى الله عليهِ وسلَّم- أنَّ الملائِكَة جاءتهُ بالوَحيِ الصَّافي؛ لكي لا يشُك، بمعنى ألَّا يشُك بأنَّ هذا الوحي من الشياطين، حذارِ أن تشُك بأنَّ كلمة أو حرفًا واحدًا من الشيطان.

من الممكن أن يتساءل أحدهم:

أليس ممكنًا والنَّبي -صلَّى الله عليهِ وسلَّم- يسمَع الوَحيْ يُلقي الشيطان له كلمة؟! أليس من الممكن أن ينسى؟!

قطعا لا {أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ} كامِلَةً، لِيَعلَمَ عِلمًا يَقينيًّا، أيْ: النَّبيُّ -صلَّى الله عليهِ وسلَّم- أن الذي قَدْ جاءَهُ هو الوَحيْ كامِلًا، وأنَّ الله -سُبحانَهُ وتعالى- : {وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ} الرُّسُل الملائِكَة، {وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا} كُلّ شيء في قمّة الإحصا... تَخيَّل هذا الوحي، كُلّ حَرْف فيه محفوظ مِنَ الله -سُبحانَهُ وتعالى-.

إذًا... القَوْل الأول: {لِّيَعْلَمَ} الله {أَن قَدْ أَبْلَغُوا}،

القَوْل الثَّاني: {لِّيَعْلَمَ} مُحمَّد -صلَّى الله عليهِ وسلَّم- {أَن قَدْ أَبْلَغُوا}،

القَوْل الثَّالِث: {لِّيَعْلَمَ} الكُفَّار أو {لِّيَعْلَمَ} إبليس أنَّ كُلَّ مُحاولاتِهِم باءَت بالفَشَل، وأنَّ الرُّسُل سيُبلِّغون، وأنَّ أتباعَ الرُّسُل سيُبلِّغون، وأنَّ الله -سُبحانَهُ وتعالى- سيَحفَظُهُم، وأنَّ الله -سُبحانَهُ وتعالى- سيُقَيِّض لِهذا الدِّين مَنْ يَنْصُرُه، ومَنْ يُبَلِّغه.

الخُلاصَة: القَوْل الذي رجَّحَهُ الطَّبَري قَوْل قَتادَة: {لِّيَعْلَمَ} الرَّسول أنَّ الرُّسُل مِن قَبلِهِ قَدْ بلَّغوا، الأقوال كُلُّها جَميلَة، وارجعوا للقُرطُبي أجمَل مَن فصَّلَ الأقوال، لكِن كِلمَة جميلَة جدًا قالها القاسِمي، تفهِّمنا الفِكرَة التي في الآيَة هنا، يقول: وإيرادُ العِلم للهِ -سُبحانَهُ وتعالى- للعِنايَة بأمرِ الإبلاغ، والإشعار بترتيبِ الجزاءِ عليهِ-أيْ: على الإبلاغ-، والمبالَغَة في الحَثِّ عليهِ، والتَّحذير مِنَ التَّفريطِ فيه.

ماذا يريد أن يقول القاسميّ؟!

يريد أن يقولَ : كُلُّ الكلام يدور على قضيَّة تبليغ الرِّسالَة، تحذير، وحَثّ، وتهديد مِنَ التَّفريط، وبُشرى بأنَّهُ سيستَمِرّ، يريد أن يقول: أنَّ **قضيّة الإبلاغ قضيَّة مِحوَريَّة، خُتِمَت بِها السُّورَة**، وبأنَّهُ -سُبحانَهُ وتعالى- أحاطَ بِكُلِّ شَيْء، وقدَّرَ كُلَّ شَيْء، رتَّبَ كُلَّ شَيْء، دَبَّرَ كُلَّ شيْء؛ لِيَقومَ الرَّسول بتبليغِ الرِّسالَة، وحَفِظَهُ الله -سُبحانَهُ وتعالى- وكمالُ الحِفْظِ للرَّسولِ مع كمالِ التَّبليغ، والنَّاقِصَةُ بالنَّاقِصَة، وهكذا لكل من سارَ على دربِهِم، أنَّ الإنسان يُحفَظ على قدْرِ تَبليغِهِ.

نعَم، قَدْ يُصابُ المبلغ أثناءَ تبليغِ الرِّسالَة، ولكِن البُشرى للمؤمنين، للمجموع وليسَت للأفراد!!

واحفَظْ هذهِ القاعِدَة، **أنَّ القُرآن– كما قُلتُ مِرارًا–لا يُطمئِن الإنسان على نفسِه، لكِن يُطمئِنُهُ على الوَحيْ، على قضيَّتِهِ التي يؤمِنُ بها.**

أعتَذِر للإطالَة، ختَمنا سورَةَ الجِن، هذهِ السُّورَة التي بيَّنَت لنا جُهدَ أهلِ الباطِل؛ لإضلالِ النَّاس، ثُمَّ بيَّنَت لنا أهميَّة أن يكون هناك جُهد مُقابِل لأهلِ الحَقّ في الاستمرار والثَّبات، مهما أعرَضَ النَّاسُ عَنهُم، ومهما قُوبِلوا بِحالَة من الإعراض، والتَّهكُّم، والسُّخريَة، لا بُدَّ أن يَثبُتوا، ولا بُدَّ أن يُبَلِّغوا دينَ الله، والله – سُبحانَهُ وتعالى– رَقيبٌ عليهِم، يعلَمْ هَلْ قَدْ بلَّغوا الرِّسالَة أمْ حرَّفوا فيها.

نسألُ الله –سُبحانَهُ وتعالى– أن نكون مِمَّن بَلَّغوا دينَ الله –سُبحانَهُ وتعالى–، وأنْ يُثَبِّتَنا على دينِهِ حتَّى نَلقاه، أقولُ قَوْلي هذا، وأستغفِرُ الله لي ولَكُم، سُبحانَكَ اللهمَّ وبِحَمدِك، أشْهَدُ أن لا إلَهَ إلا أنتَ، أستَغفِرُك وأتوبُ إليْك، جزاكُمُ الله خَيْرًا، والسَّلامُ عليكُم ورحمَةُ الله وبَرَكاتُه.